الاتجاه النفسي

في شعر أبي العلاء المعري

دالية " غير مجد في ملتي واعتقادي " أنموذجا "

بقلم الدكتـور

ضيف الله بن مريزيق السحيمي

أستاذ الأدب العربي المساعد

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمدينة المنورة

جامعة طيبة - المملكة العربية السعودية

" ... نعتقد أنّ العرب لم ينظموا في جاهليتهم وإسلامهم، ولا في بداوتهم وحضارتهم قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء .. [١] "

طه حسين

(١) من تاريخ الأدب العربي: طه حسين، المجلد الثالث ، ط ٣ ، دار العلم للملايين، بيروت، شباط / فبراير ١٩٨٠ م .

*** تقديـــــم**

أبو العلا المعري..

إنسان وشاعر وفيلسوف، شغل الناس والدارسين والباحثين والنقاد قديماً وحديثاً، بثقافته التي تضرب بجذورها في أعماق الفكر الإنساني، وشاعريته التي تلهج بها ربة الشعر حتى اليوم، ولا تزال شخصيته الشاعرة، الفيلسوفة، الحكيمة، تشغلنا في المعاصرة، لكنني حينما عزمت علي معايشة هذه الشخصية، والوقوف علي أبواب عوالمها المتباينة، لم أجد ما أقوله عن هذا الرجل العبقرية إلا بعد جهد، ومشقة، وبحث عميق في دراسات، وأبحاث، وأطروحات علمية ونقدية لا حصر لها، فقد قال عنه النقاد والباحثون، والمؤرخون والكتاب في القديم والحديث قولاً عظيماً: حيث وقفوا علي جل الجوانب الحياتية والإبداعية للرجل، الشاعر/ الفيلسوف / الحكيم/ المفكر/ الإنسان..

ذلك أن عطاءه الذي جاء نتيجة معاناة حياتية تجاوزت الثمانين عاماً – ما زال حاضراً بتجاربه الإبداعية، لا سيما الشعرية، التأملية منها، والفلسفية، وكذلك الإنسانية المنطلقة من قيود المحبسين!!، وهي تجارب دفعها دفعاً نحو الخلود صدق شاعرنا، وإيمانه بالعقل والبصيرة بعد أن حرم نعمة البصر، التي جاءت – كما ذهب الدكتور طه حسين–" محور الشخصية العلائية، والمفسر الأساسي لمعطياتها في الحياة والابداع جميعاً.

وهكذا تجدني – وقد ظفرت بفكرة أزعم أنها سوف تضيف ملمحا جديداً إلي عوالم أبي العلاء المعري الشعرية، خاصة وأن شاعرية الرجل مازالت مفتقرة إلي إضاءات بحثية ونقدية وتأصيلية – أعزف لحناً متواضعاً يكون تنويعاً وجدانياً علي اللحن الكبير" التكوين النفسي لأبي العلاء" في صورته الشعرية، والذي شكل البناء العلمي والفني لموضوع هذا البحث الذي عنونته

بـ "الاتجاه النفسي في شعر أبي العلاء المعري"

دالية (غير مجد في ملتي واعتقادي. . .) أنموذجا .

وعليه فقد اعتمد هذا الموضوع علي دالية شاعرنا/ مرثيته التي تعد من عيون الشعر العربي، في رثاء صديقه أبي حمزة ،الفقيه الحنفي، والتي مطلعها:

غير مجد في ملتي واعتقادي *** نوحُ باك ولا ترنم شاد

حاولت أن أستشرف من خلال شعريتها – في فكرتها، وبنيتها الفنية، ودالها الأسلوبي – الاتجاه النفسي، بل التكوين النفسي لأبي العلاء، ذلك التكوين الذي شكل كثيراً من إبداعه، شَكْلاً ومضموناً، ونُبوغاً وحكمة، وزُهداً وتَشاؤُماً، وغيرها من الآراء التي اهتمت بشخصية عبقري معرة النعمان، أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي، المنسوب إليها، والمكني بأبي العلاء، كما أكد في قولة:

دعيت أبا العلاء وذاك مين *** ولكن الصحيح أبو النزول

وفي ضوء هذا التوجه العلمي، جعلت البحث يتوجه نحو رسم صورة فنية نقدية تبرز الاتجاه النفسي عند أبي العلاء، الذي جاء حاضراً في عوالمه الحياتية والإبداعية لاسيما الشعر، وبخاصة هذه المرثية التي شكلت صلب موضوع البحث، وقد اقتضي هذا التوجه المنهجي أن تحتوي هذه الصورة العلائية لإتقانها علي هذه المشاهد الثلاثة التالية، علها تأتي مكتملة بتوفيق الله.

. **المشهد الأول:** أبو العلاء المعري.. حياة وفناً.

. **المشهد الثاني:** النص .. القصيدة .

. **المشهد الثالث**: المشهد الشعري للدالية.. قراءة نقدية عصرية.

لتصل بنا هذه المشاهد إلي خاتمة البحث التي أتمني أن تقول شيئاً جديداً عن رجل "فريد في بابه، فريد في قوله وملته، فريد في حكمته وفلسفته، فريد في علمه وأدبه..."، فريد في شعره خاصة، سائلاً المولي – عز وجل – التوفيق والسداد لخدمة تراثنا الإنساني الفريد، وعلي الله قصد السبيل.

د . ضيف الله السحيمي

المشهد الأول
أبو العلاء المعري.. حياة وفنا

جاء أبو العلاء – " أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داود بن المطهر بن زياد بن ربيعة بن الحرث بن ربيعة بن أنور بن أسحم بن أرقم بن النُّعمان بن عديّ بن غَطَفَان بن عمرو بن بَرِيح بن خُزَيمة بن تَيْم الله بن أسد بن وبرة بن تَغْلِب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة التَّنُوخيُّ المعَرِّيُّ[١]"– فيلسُوفاً مُتأزّماً في كلّ محطّة من محطّات حياته ، المتخمة بالشعر واللُّغة والأدب ، والفقه والمنطق والفلسفة ؛ والمُثخنة بالغربة المكانية والزمانية ، والبؤس واليأس، والعزلة الحياتية الاجتماعية ، على الرغم من تعدد ترحاله عن المعرّة مسقط رأسه ..

فلقد كانت حياته صورة مأساوية لشاعرٍ مأزومٍ مهموم ، مُقاوم في جُلّ قصيده ؛ ذلك الشعور المأساوي المُلبّد بغيوم العزلة في غياهب المحبسين "العمى والبيت " ، بل في غياهب "المحابس الثلاثة"

التي أشار إليها في قوله من اللزوميات[٢] :

---

(١) الإنصاف والتحرّي في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي : لابن العديم : ص٢ ، عن النسخة المنقولة عن المجمع العلمي العربي بدمشق ، الممهورة بإهداء إلي المجمع من محمد مرعي باشا الملاح من خزانته بحلب ، بتاريخ ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٣٤٠ هـ ، وحفظت في المجمع الدمشقي برقم : ٤١ وعليها عبارة الإهداء من الملاح باشا ، وأبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا ، ص ١١ ، ط مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ٢٠١٢م .

(٢) اللزوميات: أبو العلاء المعري، ج ١، ص ٢٤٩، ط بيروت، دار صادر ، ١٩٦١م.

أراني في الثلاثة من سُجوني *** فلا تسأل عن الخبرِ النبيث
لِفَقْدِي ناظري، ولزوم بيتي *** وكَوْنِ النفس في الجسدِ الخبيثِ

ولا تعجب من هذه العزلة ، فقد كان الرجل شديد التأذي من بني جلدته ، وممّن أحاطوه ، وممّن خالطهم لاسيما في بغداد التي كانت نقطة تحوله ، وسبباً رئيساً من أسباب عزلته عن الحياة الدنيا، التي وصفها بالخِسّة ، والتي شاركها أهلها في هذا الوصف العلائي القاسي[١] :

خَسِئْتِ يَا أُمَّنا الدنيا فأفٍ لنا *** بني الخسيسة أوباشٌ أخسّاءُ

حتّى وصلت به هذه النظرة التشاؤمية من دنياه ، وأهلها ، وممّن حوله من بني جلدته ، أنْ ذهب مُغاضِباً صابّاً عليهم نقمته وذمّه ، متمنياً الموت حتى يستريح من أذى أهل هذه الدنيا الخسيسة – على حدّ وصفه لها – ولتهدأ نفسه المعذّبة ، وتسكن بسكونها تراب قبره ، فيقول[٢] :

بني الدهر مهلاً!إن ذممتُ فعالكم ** فإنّي بنفسي لا محالة أبدأُ
متى ينقضي الوقتُ، واللهُ قادر **فنسكن في هذا التراب ونهدأُ
تجاور هذا الجسم والروح برهة***فما برحت تأذي بذاك وتصدأُ .

ولد شاعرنا في بلدة المَعَرّة التي يُنسبُ إليها ، وهي " بلدة بالشام من أعمال حمص بين حلب وحماة " ، وذلك في عام ٣٦٣هـ / ٩٧٣م ، لعائلة عُرِفت بالعراقة في الثقافة والعلم ، والوجاهة والمجد، والثراء والفضل ؛ فكان منها الشعراء والفقهاء والقضاة . وينتهي أصل هذه العائلة إلى قبيلة تَنُوخ من عرب الجنوب الذين هاجروا بعد انهيار سدّ مأرب ، واستوطنوا سُورِيَّا بمعرّة النعمان . .

---

(١) المصدر السابق : ج١ ، ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق نفسه : ج١ ، ص ٤٦ .

وربّ هذه العائلة – والد المعري – عالمٌ أديبٌ من علماء المَعَرّة ، أخذ عنه شاعرنا الكثير من اللغة والأدب والنحو ، وجاء جدّهُ على رأس القضاء في المعرة ، وقضاء حمص ، ثمّ تولى عمه ووالده القضاء أيضاً في المعرة ، حتى قِيلَ إنّ : " أكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بني سليمان بن داود بن المطهر ، الجدّ الخامس لأبي العلاء[١] " .

والمعري بهذا النسب عربيُّ الأرومة ، إذْ يعود نسبه البعيد إلى تَنُوخ ، " وهم قبيلة من اليمن من قُضاعة... [٢] " . وتَنُوخ كما يذكر ابن العديم من أكثر العرب مناقب وحسبا ، ومن أعظمها مفاخرَ وأدبا، وفيهم الخطباء والفصحاء ، والبلغاء والشعراء ... وقد أنجدوا في الجاهلية ملك الروم بعد أن هزمه الفرس ، وقاتلوا معه قتالاً شديداً ، ثمّ حاربوا الفرس منفردين وظفروا بهم ، وقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وأبلوا بلاءً عظيماً ... ولمّا جاء الإسلام قدموا مع أبي عُبيدة بن الجراح – رضي الله عنه –، وكانوا أشدّ من معه من العرب شوكة، وأكثرهم عدداً...[٣]" .

---

(١) الإنصاف والتحري : لابن العديم ، ص ٣ ، ولغة أبي العلاء في رسالة الغفران : د. فاطمة الجامعي الحبابي ، ط دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ ، ص ١٥ .

(٢) والتَّنُوخ هو المُقام في الموضع . يُقال : تَنَخ في الأمر ، أي رسخ فيه ، فهو تانخ ، وقد سُمّوا بذلك لأنّهم اجتمعوا وتحالفوا ، وتَنَخوا بمكان في الشام ، أي أقاموا فيه . راجع هنا للمزيد : الإنصاف والتحري : لابن العديم ، ص ٢ ، أبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا ، ط هنداوي ، القاهرة ، مصر ،٢٠١٢م ، ص ١

(٣) الإنصاف والتحري : لابن العديم ، ص٢ ، والفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري.. رؤية نقدية عصرية للتراث: د. صالح حسن اليظي، ط دار المعارف، مصر، ص٧ .

ولا شكّ أنّ نسب المعري القريب في بني سليمان ، وفيهم العلم والرياسة ، وأبوه من العلماء ، وأجداده قد تولوا قضاء المعرة ؛ والثابت من الأخبار أنّ أكثر قضاة المعرة ، وذوي الفضل والعلم والشعر والأدب، فيها من بني سليمان أولئك ، كُلّ ذلك يؤكد حقيقة دامغة ، وهي أنّ المعرّي قد جاء من بيت علم وقضاء ، ورياسة وثراء ، كان له الدور البارز في تكوين شخصيته المبدعة كما سيأتي .

وأُمّه من آل سبيكة الحلبيين ، فهي بنت محمد بن سبيكة ، وخاله عليّ بن محمد بن سبيكة ، الذي يقول فيهم[١] :

كأنّ بني سبيكة فوق طير *** يجوبون الغوائر والنِّجاداَ
أبا لإسكندر الملك اقتديتم *** فما تضعُون في بلد وسادا .

وآل سبيكة وإنْ لم يكونوا من المبرزين في العلم ، فإنهم كانوا من ذوي المروءة والشرف ، والكرم ونبل الأخلاق ، والحرص على صلة الرحم ، كما أنهم كانوا من ذوي الأسفار طلباً للجاه والمجد ، ممّا أشار إليه أبو العلاء في مرثيته لأمّه ، في قوله[٢] :

وكمْ لكِ من أب وسَمَ الليالي *** على جبهاتـها سمة اللئـام
مضى وتعرف الأعلام فيـه *** غنى الوسم عن أَلِف ولامِ

ولاشك أنّ هذه الأخولة قد تركت أثراً كبيراً في حياة المعري الإبداعية ، والفكرية ، والفلسفية ، والاجتماعية ؛ فقد تميزت أسرة أمه بخصال ثلاث ، يستطيع الدارس لحياة المعري أن يستشرفها من صفحات حياته ، " أولى هذه الخصال : كثرةُ الرحلات وجَوْبُ الآفاق . وثانيهما : كرم

---

(١) شروح سقط الزند : ط دار الكتب، القاهرة ، ١٩٤٨م ، ج٢ ، ص ٧٨٢،ص٧٨٣.

(٢) شروح سقط الزند : ط دار الكتب – القاهرة ، ١٩٤٨ م ، ٤ / ١٤٧٣ .

النفس وسخاؤها بالمال وحرصهم على صلتهم للرحم . والثالثة : حب العلم والنبوغ فيه[١] .

عاش المعري مُحاطاً بهذه الأسرة ، طفولة ناعمة ، بين والدين رؤومين ، تامين العِرض حسباً ونسباً وشرفاً ، في كنف أسرة يعلوها الشرف والسؤدد ، ويزيّنها عِزّةُ مجدٍ ، وسمُوّ علمٍ ، ووجاهةٍ وثراءٍ ، وهو ما تغنّى به الفتى ، وافتخر به على الآخرين ، بعد أن اشتدّ ساعده ، ولهج بالقصيد ، وذلك على نحو قوله[٢] :

أتمشي القوافي تحتَ غَيْرِ لِوائِنـا *** ونحنُ على أقْوالِها أُمـراءُ؟
ومَا سَلَـبَتْنَا العِـزَّ ، قطُّ ، قبيلـةٌ *** ولاَ بـاتَ مِنّا فيـهِمُ أُسَرَاءُ
ولاَ سَارَ في عَرْضِ السَّماوَةِ بارقٌ *** وليسَ لهُ مِنْ قوْمِناَ خُفَراءُ .

نعم .. لم تستطع أية قبيلة النيل من أسرة المعري ، أو أن تسلب شاعرنا العزّ الذي توشّحت به عائلته ، والمجد الذي امتدّ في عقبها ، لكنّ الدنيا قلبت له ظهر المِجَنّ ، وابتلته بما تنوء عن حمله الجبال ، في مستهل حياته ، فإذا هو " يعيش في كنف والديه ينعم برعايتهما ، ويظلله مجد أسرته العريقة ، وكان من المقرر له – وقد ظهرت عليه مخايل الذكاء – أن يتبوأ مركزاً مرموقاً في المجتمع ؛ يلقى الصدمة العنيفة ، فقد اعتل علة الجدري وهو في الرابعة من عمره ، وقبل أن تستقيم خطواته على الدرب الطويل الشاق ، درب الحياة والوجود . ولم يشف من هذه العلة إلاّ بعد أن

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين ، ط٦ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ م ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .

(٢) سقط الزند : ط دار بيروت للطباعة والنشر ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧ م ، ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

شوّهت وجهه بندوب لا شفاء منها، وذهبت ببصره مُسدلة بذلك حجاباً كثيفاً، لا سبيل إلى اختراقه ، بينه وبين دنيا الناس[١] .

وبدأ المعري حياة جديدة في عالم الظلمات ، وحاول أن ينهض ويثب فوق الأهوال من حوله ، لكن خطواته الأولى في الحياة الجديدة تعثرت، فقاده والده نحو عوالم البصيرة، بعد أن فقد البصر، واحتضنته أمّه ورعته في حُنوّ ورحمة ، ليعوضاه عن محنته مع العمى ، وعلّة الجدري التي نفّرت الكثيرين من النظر إليه .

ومرة أخرى تُكشّر الدنيا عن أنيابها لشاعرنا ، فتفجعه في مطلع حياته بوفاة والده ، وما لبث أن فقَدَ الأُمّ التي غدت بعد رحيل الأب ، العينَ والعقلَ ، والسّند ، بل أصبحت كلّ حياته في عوالم الغربة المكانية والزمانية، لتأتي شخصية أبي العلاء من بعد ، شخصيّةً مثقلةً بالهمومِ والوحدة ، والضّجرِ من الدنيا وأهلها ؛ مشحونةً بالبؤس واليأس والتشاؤم ، والكثير المؤلم الذي ترك أثراً عميقاً في أغوار نفس صاحبنا، وشكّلت شخصيته الحياتية والإبداعية والفكرية ، وهو ما ظهر في أدبه وفكره جلياً بفعل تلك المؤثرات التي غيّرت وجه حياته كليّة ، وفي مقدمتها : العمى ..

* والعمى ..

يأتي في مقدمة المؤثرات التي غيّرت مجرى حياة شاعرنا أبي العلاء ، وأشدّ المحن التي ظهر أثرُها جلياً في رسم حياته الإبداعية والفكرية

---

(١) ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء : د. عفيف عبدالرحمن، ط١ ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣ م ، ص ٣٧٢ ، بتصرف .

والاجتماعية . فقد أصيب بالعمى إثر إصابته بالجدري" أول سنة ٣٦٧هـ[١]"، وهو لم يتجاوز السنة الرابعة من عمره ، وذكر ابن كثير أنّ إصابته بالجدري كانت " وله أربع سنين ، أو سبع، فذهب بصره[٢] " ، حيث " غَشَّى يُمْنَى حدقتيه بياضٌ ، وأذهب اليُسرى جُمْلَةً ... وكان يقول : لا أعرف من الألوان إلاّ الأحمر ؛ لأنهم ألبسوني حين جُدِرْتُ ثوباً معصفراً ، لا أعقل غير ذلك[٣] .

والقول الثابت عند كثير من دارسي أبي العلاء حول تاريخ إصابته بالجدري ، هو أنّ إصابته بالجدري وفقده البصر كانا في سنّ الرابعة من عمره ، كما يؤكد نفسه في إحدى رسائله إلى هبة الله بن موسى بن أبي عمران داعي دُعاة الفاطميين : " وقد علم الله أنّ سمعي ثقيل ، وبصري عن

(١) أبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا ، ص ١٩ .

(٢) البداية والنهاية : لابن كثير ، المجلد ٦ ، الجزء الثاني عشر ، ص ٧٧ ، ط أولى، دار الريان ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

(٣) الانصاف والتّحري : لابن العديم ، ص ١٣،وأبو العلاء :أحمد تيمور، ص ١٩ .

الإبصار كليل ، قُضِيَ عَلَيّ وأنا ابن أربع، لا أُفرّق بين البَازل[١] والرُّبَع[٢] ، ثمّ توالت محني ، فأشبه شخصي العود المنحني[٣].

وليس هذا وحسب ، بل صُبِغت هيئته ، وشخصيته ، وتجاربه بوقع هذه العاهة الأليم عليه ، " نقل الثعالبي عن المصيصي الشاعر قوله : رأيت بِمعَرّةِ النعمان عجباً من العجب ، رأيتُ أعمى شاعراً ظريفاً يلعب بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كُلّ فنّ من الجدّ والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيري على البصر[٤] " ، وزاد صاحب نزهة الجليس : " أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر، فقد صنع لِي وأحسن بِي ، إذْ كفاني رؤية الثقلاء والبغضاء . كما نسبت المصادر القديمة إلى أبي العلاء مع هذا القول ، قوله :

قالوا العمى منظر قبيح *** قلتُ بفقدكم يهون
والله ما في الوجود شيء *** تأْسى على فقده العيون[٥].

---

(١) البازِلُ من الجِمَال الذي بلغ تسع سنين ، وليس بعده سنٌّ تسمى .

(٢) والرُّبَع كصُرَد : الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النِتاج ، فإذا أنتج في آخر النتاج فهو هُبَع ، ومراد أبي العلاء : لا أُفرّقُ بين الكبير والصغير .

(٣) للمزيد يراجع : أبو العلاء المعري : أحمد تيمور ، ص ١٩- ٢٠ ، والجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره : محمد سليم الجندي ، ج ١ ، ص ٦٦- ٧٠ ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٦٢ م .

(٤) أبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا ، ص ١٩ .

(٥) نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس : العباس بن نور الدين الحسيني المكّي ، ط تعريف القدماء ، ص ٣٥٣ .

ومن المؤكد أنّ العمى الذي أصاب شاعرنا في سنّ مبكرة عقب إصابته بمرض الجدري ، كان له أكبر الأثر في تحول حياته ، فكرياً وثقافياً، وسلوكياً واجتماعياً . ولا أوافق مَنْ يُقلّل مِنْ وقع هذا المصاب الجلل على نفسه ، وهو لم يزل في معية الصبا . ولك أنْ تتخيّل صبياً في مطلع حياته، وعلى عتباتها الأولى – تندر يُمنى عينيه بعد أن تبدّد سوادها ، على حين ذهبت اليُسرى تماماً وغارت ، واكتنفت وجهه تلك الآثار القبيحة لمرض الجدري ، وظلّت هذه هيئته منذ الطفولة الباكرة حتى نهاية حياته في شيخوخته .. دميم الخلقة ، مجدّر الوجه ، نحيل الجسم ، " ممتلئاً بالحسرات والزفرات وعظيم الآلام[١]" ..

وإذا استقرأنا شعر صاحبنا المعري نستشرف عبر تجاربه المتنوعة ملامح هذه الهيئة الشخصية التي لازمته طوال عمره حتى نهاية حياته ، وجدنا هذه التجارب تطفح بالأسى والحزن العميقين ، وتضجُّ بالآلام والآهات والزفرات ، كاشفة عن نفسٍ مكلومةٍ مأزومةٍ بما هي عليه من عمىً يُحاصرها ليل نهار ، ودمامةِ وجهٍ أبعدته عن دوائر القبول الإنساني والمجتمعي ، ومعجم شعري مُغلّف بسياجٍ مِنْ ظلمة حالكة ، ناطق بأسلوبٍ مُجَدّرٍ – إنْ جاز هذا التعبير – كامنٍ في أعماق طرقه التي عدمت الضوء والهداية ..

وكان من أثر ذلك على نفسه – وهو كثير في أدبه – أنّه كان لا يأكل بحضرة أحد ، مُعَلّلاً ذلك بقوله : " أكلُ الأعمى عورة[٢]"، ومُردّداً بينه وبين

(١) الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري : د. صالح حسن اليظي ، ص٢٢ .

(٢) البداية والنهاية : لابن كثير ، المجلد ٦ ، الجزء الثاني عشر ، ص٧٨ .

نفسه ، قوله : " ... قُضِيَ عَلَيّ وأنا ابنُ أربع ، لا أُفرّقُ بين البازلِ والرُّبَع"، مُستعذباً تلك العُزلة الذاتية – إن صحّ هذا القول – والعزوف عن ملذّات الحياة ، كلّ ذلك وأكثر جلبه العمى على حياته ونفسه وتكوينه، وأفرز عوامل أخرى ، وأوجد سُجوناً عدة ، نذكرها فيما بعد ، كلّ ذلك تجدهُ واضحاً جلياً ،غير مُضمرٍ، أو خفيٍّ في كثيرٍ من إبداعه ، وبخاصة في الشعر، على نحو قوله[١] :

أراني في الثلاثةِ مِنْ سُجوني *** فلا تسأل عن الخبر النبيث
لِفقدي ناظري ولزوم بيتي *** وكون النفس في الجسد الخبيث

وقوله[٢] :

أعمى البصيرة لا يهديه ناظره*** إذْ كلّ أعمى لديه من عصى هاد

وقوله الذي يُشير فيه أيضاً إلى العاهة التي لازمته وهو ابنُ أربع، وذلك في " الفصول والغايات[٣] "، " في ضمير الأرض حسرات":

إذا طُفِئتْ في الثّرى أعيُنٌ *** فقد أَمِنَتْ مِنْ عَمى أو رَمَدِ

ولم يَخْفَ الجُدريّ – علّة المعري التي ضاعفت مأساته ، وأطفأت نور عينيه للأبد ، وشوّهت وجهه بآثار قبيحة لازمته طوال حياته – من شعره ، فيقول[٤] :

أضرّ من جدري شان حامله *** بحمله جدري جاء من جدر

---

(١) اللزوميات : ١/ ٢٤٩ .

(٢) السابق : ١/ ٣٧٩ .

(٣) الفصول والغايات : لأبي العلاء المعري ، تحقيق : محمود حسن زناتي ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

(٤) اللزوميات : ١ / ٥٣١ .

وقوله في العمى الذي أحاله ضريراً لم يجد له طريقاً يسير في دروبه ، حتى لو عثر عليه ، لقيه مُظلماً ، وسلكه دون هدى[١] :

وما بي طرق للمسير ولا السّرى
لِأَنّي ضريرٌ لا تُضيءُ لي الطرق

وأثر العمى ، وخطورة تجربته في حالة أبي العلاء ، كانت – فيما أرى– متمثّلة في معطياتها الفكرية والميتافيزيقية ، على نحو ما أشار إليه وأكده الدكتور صالح اليظي ، وفي توكيده ما كان كامناً ونَمّتْهُ التجربة والثقافة من إحساس مدرك بالعدم ، وبهيمنة العبث على الحياة الإنسانية ، ونحن حينما نكتفي مع الآخرين بما في العمى من حسرة ولوعة ويأس ، فإنّنا بذلك نؤمن بأهون نتائج العمى – من جهة – ونتجاهل طبيعة المعري من جهة أخرى ، ونتناسى أو نغفل – في الوقت ذاته – أنه قد أصيب بالعمى في سنّ تُيَسّر عليه أن يتوافق مع الحياة الخارجة ، غير أنّ العمى يظلّ حاضراً ، وفاعلاً ، ومؤثراً نشطاً ، ومتعاظماً من حيث كونه دليلاً مادياً مباشراً وشخصياً لدى المعري عبثية الحياة الإنسانية ، وعدمية الكون وفساده ..

ومن ثم نرى تأثير العمى متطامناً يكاد يكون راكداً في طفولته وصباه منذ الرابعة من عمره ، ثم ينمو ويزداد تعاظماً بتزايد إدراك المعري لما هو كامنٌ في أعماقه من عدمية الكون وعبثيته ، وتلك إدراكات يصقلها ويبرزها السنُّ والثقافة وتجربة الحياة ، ثم لا تلبث أن تعطي أقوى حضورها ، وتصل إلى بدايةٍ حاسمة بالاعتزال الذي آمل صاحبنا العلائي أنْ يجد فيها نفسه

(١) اللزوميات : لأبي العلاء ، ٢ / ١٧٥ .

وذاته ، لكنه لم يجدها ، بل وجد العزلة والوحدة[١] ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يقول:

لَـيْلِي كما قُص الغُرابُ ! خـلاله
بـرقٌ يـرنّـقُ دأْبَ نـسْر حَـاتـم
تركَ السُّيوفَ إلى الشّنُوف ولمْ يَزل
يضوَى إلى أنْ قُلتُ نقش خراتم
بمَحلّة الفُـقهـاءِ لا يَـعْـشُو الفـتى
ناري ولا تُنضي المَطيّ عزائمي[٢] .

ألا تُشير الأبيات السابقة إلى أي مدى قد تعمّقت وحدة أبي العلاء وعزلته في بغداد ؟ وماذا يعني هذا الليل الجاثم بظلمته على الشاعر سوى " احتمائه بنفسه من العالم الخارجي والابتعاد عن أضوائه وضوضائه[٣]"؟ وماذا يعني هذا البرق الذي انطلق في هذه الظلمة بقوة ، لينتهي بعد رحلة طويلة لفّهُ فيها الضعف والوهن ، إلى مجرد وشم قد تُخطئه العين[٤]؟ أليست هذه النهاية التي انتهى إليها البرق ، لا تختلف كثيراً عن النهاية التي انتهى إليها أبو العلاء بمحلة الفقهاء (بغداد) ؟ أليس صحيحاً إلى حدٍّ كبيرٍ ما يذهب إليه البعض من أنّ الشاعر " هو أشدّ الناس شعوراً بوحدة الذات في العالم ووحدتها بين غيرها من البشر[٥] " ؟ .

---

(١) الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري : د. صالح حسن اليظي ، ص ٢٣ .

(٢) قضايا العصر في أدب أبي العلاء : د. عبد القادر زيدان ، ٣٣٣ وما بعدها .

(٣) ثورة الشعر الحديث : د. عبد الغفار مكاوي ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب' القاهرة ، ١٩٧٢ م ، ص ٢٦٨ .

(٤) تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين ، ص ١٧٠ .

(٥) ثورة الشعر الحديث : ص ٢٥٧ ، قضايا العصر في أدب أبي العلاء : ص ٣٣٤ .

والمتأمل في حياة الرجل يجد ما يؤكد ما ترجمته الأبيات السابقة، فقد كان المعري حادّ الذهن ، عصبيّ المزاج ، ضيّق الخُلُق – لاسيّما في أُخريات حياته ، وهو ما يُفسّر كثرة مصائبه واختياره العزلة وكثرة شكواه ، ومن ثمّ تشاؤمه ، وشدّة حذره مِمّن حوله وسوء الظنّ بهم ، " لأنّه لم يَلْقَ من النّاس أو اعتقد أنّه لم يلْقَ منهم ومن الدهر إلاّ شرّاً[١]"، مِمّا نراه في تشاؤمه الذي جاء في قوله :

هو الشرُّ قد عمّ في العالمـ *** ـين أهل الوِهاد وأهل الذُّرا[٢]

وفي قوله :

تـوحّـدْ فـإنّ الله ربّـكَ واحـــدٌ

ولا ترغَبَنْ في عِشْرَةِ الرُّؤساءِ

يقلُّ الأذى والعيْبُ في ساحة الفتى

وإنْ هو أكـدى قـلّة الجُلســاءِ[٣]

ويتأكد أيضاً للمتأمل في حياة شاعرنا أنه " أحسّ مُبكّراً بمحنة فقده لبصره ، وأنه لا يحيا حياة الناس ، فحياته تُحيط بها أثقالٌ من العجز، وتغشاها ظلمات تحجب عنه الوجود ، فهو كَلٌّ وعِبْءٌ على غيره، لا يستطيع الحركة بدون عون ، وهو محجوب عن رؤية أشعة الشمس حين تُشرق ، ورؤية الظلام حين يُرخي سدوله على الكون ، ورؤية الأزهار على الأغصان حين يُعانقها النسيم ، بل هو محجوب عن رؤية كل مظاهر الجمال في الإنسان والطبيعة ..

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين ، ص ١٧٠ .

(٢) فصول في الشعر ونقده : د. شوقي ضيف ، ط ٣ ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ ، ص ١١٥ .

(٣) تجديد ذكرى أبي العلاء : ص ٢٥٦ .

وقد جعله ذلك يشعر بغير قليل من الأسى والحزن ، وأنّ الحياة مليئة بالشر ، ولا يستطيع الإنسان أن يدفعه عن نفسه إذْ لا تزال سهامه تنفذ إليه، ولا يزال فريسة لها ، فريسة منهكة . ويطول به التفكير في شرور الحياة ، ويطول به القلق واليأس ، فالحياة نَصَبٌ وعذابٌ وآلامٌ ، وليس فيها ما يُغْري بحبّها أو الإقبال عليها ...[١]. حتى أبت عليه نفسه المكلومة من الدنيا أن لا يتزوج ، فيكون له ولد يتألم في دنياه مثلما تألم هو، ويُلاقي من صنوف عذاباتها ما لاقاه ، وفضلّ أنْ يعيش حياته عزباً ، مؤمناً بهذه الفلسفة التي أودعها قوله :

فما للفتى إلاّ انفراد ووحدة *** إذا هُو لمْ يرزق بلُوغ المآرب[٢]

وقد أكّد على هذا المذهب العلائي الدكتور طه حسين حيث علّل لهذا بقوله :كان مذهبي هو مذهب أبي العلاء في العزوف عن الزواج لأني مثله في العاهة (أعمى) ، ولأني أحببته ، وكتبت عنه رسالتي للدكتوراه . كان هذا قبل سفره إلى فرنسا التي أطاحت بمذهب أبي العلاء من حياته ليتزوج وينجب ، وقد فسّر طه حسين سبب تمرده على مذهب شيخه أبي العلاء في عزوفه عن الزواج – لاسيّما بعد سفره إلى فرنسا حيث جامعة السربون – ، قائلاً :

"إنّ زوجتي كانت تقرأ لي في الجامعة بأجر ، فأعجبني صوتها وطريقة حديثها ، فأحببتها ، وغلب حبُّها على مذهب أبي العلاء ، فطلبتُ منها الزواج ... ، ذلك أنّ طه حسين قبل أن يُوفد للدراسة في الخارج لم يكن ليتاح له أن يلقى امرأة ، أو يتحدث إليها ، اللهم إلاّ والدته أو شقيقته ،

---

(١) فصول في الشعر ونقده : د. شوقي ضيف ، ص ١٠٨ .

(٢) اللزوميات : ج٢ ، ص ١١٤ .

فلمّا سافر إلى فرنسا كانت زوجته أول امرأة لا تَمُتّ إليه بصلة رحم يجلس معها ، ويتحدث إليها ، وتُساعده في دراسته وتنقلاته ، فلا غرو أنْ أحبّها ذلك الحبّ الذي جعله يُنكر مذهب أبي العلاء في العزوف عن الزواج[١]. وإن لم يُنكر حبّه وعشقه له .

فها هو ذا عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين يُعرب عن حبّه لشيخ المعرة وهو يكتب عن المتنبي شاعر العربية الأكبر، فيقول :

"... وليس المتنبي مع هذا مِنْ أحبّ الشعراء إليّ وآثرهم عندي ، ولعلّه بعيد كل البعد عن أنْ يبلغ من نفسي منزلة الحب أو الإيثار ... ولو أني أطعت نفسي وجاريت هواي لاستصحبت شاعراً إسلاميا قديماً عسيراً ... أو شاعراً عباسياً من هؤلاء الذين أُحبّهم وأُوثرهم ؛

لأنّي أجد عندهم لذّة العقل والقلب ، أو لذّة الأذن ، أو اللذتين جميعاً، كأبي العلاء ..."[٢] .

لكنّ هذه العاهة ، عاهة العمى – " التي كانت رافداً غزيراً من روافد تشاؤم المعري ، لأنها كانت دليلاً محسوساً شخصياً ومباشراً ... على نحو ما ذهب إليه عمر فروخ من أنّ عمى المعري هو الذي خلق تشاؤمه[٣] " – لم تُثن شيخ المعرة عن أن يكون علامة بارزة في تاريخ العقل العربي ، فقد

---

(١) مجلة الهلال: عدد أغسطس١٩٩٢م، ص ١٣٤، الناشر دار الهلال، مصر، بتصرف .

(٢) مع المتنبي : طه حسين ، الناشر وزارة الثقافة ، المملكة الأردنية الهاشمية ، ٢٠١٤ م ، ص ٩ .

(٣) حكيم المعرة : عمر فروخ ، ط ٢ ، مطبعة الكشاف بيروت ، أغسطس ١٩٤٨ م، نقلا عن : الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري : ص ٢٤ .

أتاه الله ألقاً وتوهجاً في بصيرته ، ونفساً دائمةَ التّأمل والتفكر في كل شيء من حوله ، " فانطلق الرجل يُحاور الأقدار ، ويتمرد على ما يأباه العقل من مُسَلّمات الميراث والنقل ، وهو في كلّ ذلك محمول على أجنحة تجربته الروحية الفكرية متحرراً من تشتت الإبصار ، ومستعيناً بتركيز البصيرة الكاشفة ، والعزلة الوادعة الهادئة كي ينفذ إلى كل جوانب الأرضين وآفاق السموات العلا ، مؤمناً بذاته ' ومدركاً قيمته الإنسانية التي جلّها على فكره ووجدانه ، وهو شعور لا نشك في أنّ قهرَ الرجل آفته، وطغيان شهرته على سائر معاصريه من المفكرين والأدباء والشعراء كانا من أخصب روافد تكوينه[١] .

يقول أبو العلاء مؤكداّ على تقديره لبصيرته على الرغم من مرارة الإحساس بفقد البصر الذي يلح على تذكّره دائماً في جُلّ شعره، وهو مما رواه الصفدي :

سواد العين زار سواد قلبي *** ليتّفقا على فهم الأمور

وهو يُشير بذلك إلى أنّ العميان عُوّضوا عن البصر الذكاء وسرعة الحفظ ، وقريب منه ما يُنسب للصحابي الجليل عبد الله بن عباس ، وكان قد أصيب في بصره في آخر عمره :

إنْ يأخذ الله من عيني نــورهما
فـفي فـؤادي وقـلـبي منهـما نــور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل
وفي فمي صارم بالقول مشهـور[٢] .

---

(١) راجع للمزيد : الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري : من ص ٢٤ وما بعدها .

(٢) أبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا ، ص ٢١ .

ويقول أبو العلاء في موضع آخر ' في دلالة واضحة جلية على تيقّنه من قيمته العلمية والإنسانية ، وإبراز ذكائه ومدى تحقيقه لذاته وفرض كيانه على المجتمع والعالم من حوله :

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم * بإخفاء شمس ضوؤها متكامل

وإني .. وإن كنت الأخير زمانــه * لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل[١]

وهذه حقيقة لم تُنكر على أبي العلاء لا قديماً ولا حديثاً ، فقد اشتهر الرجل بقوة الملاحظة اشتهاراً عظيماً ، وربّما زاد حفظاً بالعمى ، فإنه يجمع الذهن ويُقوّي المخيلة ، وبدهيّ أن يكون لعمى المعري أثر بيّن في توجيه فكره وسلوكه ، وكذلك في اتّقاد ذاكرته وحدّتها ، فهو القائل بما يُفصح عن اعتداده بأنه لا نظير له :

فاسمع كلامي وحاول أن تعيش به *** فسوف أعوز بعد اليوم طلابي[٢]

وهو يقرر أن منهج حياته وسيرته الذاتية في الحياة يتعين أن يكونا نبراساً هادياً للناس :

خذوا سيري فهنّ لكم صلاح *** وصلوا في حياتكم وزكوا[٣]

ومن شواهد نعم العمى على أبي العلاء أنه حكي أنّ أبا محمد الخفاجي الحلبيّ ، لمّا دخل على أبي العلاء بالمعرّة ، سلّم عليه ، ولم يكن يعرفه أبو العلاء ، فردّ عليه السلام وقال : هذا رجلٌ طُوال . ثمّ سأله عن صناعته ، فقال : أقرأُ القرآن . فقال له : اقرأ عليّ شيئاً منه . فقرأ عليه

---

(١) شروح سِقط الزند : القسم الثاني ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م ، ص ٥٢٣ وما بعدها .

(٢) اللزوميات : ١/ ١٥٥.

(٣) السابق : ٢/ ٢٢٢ .

عَشْراً . فقال له : أنت أبو محمد الخفاجيّ الحلبيّ ؟ فقال : نعم . فسُئِل عن ذلك فقال : أمّا طوله فعرفته بالسّلام . وأمّا كونه أبا محمد فعرفته بصحة قراءته وأدائه بنغمة أهل حلب ؛ فإنّني سمعت بحديثه[١] .

ومثل هذا يؤكد أنّ العمى كان محور شخصية أبي العلاء.

* بغداد : الحلم والواقع :

ولم تأت بغداد بهذه المكانة في مُخيّلة أبي العلاء من فراغ ، خاصّة بعد أنْ عاش بحلب ، وتتلمذ على مشاهيرها ، وزار أنطاكية التي كانت تحت حكم الرومان ، فاطّلع على ذخائرها العلمية والفكرية التي حفلت بها مكتبتها الشهيرة آنذاك ، وعرّج على اللاذقية التي يُقال إنّه نزل بأحد أديرتها ، واستمع إلى راهب هناك كان مولعاً بالأفكار والآراء الفلسفية ، والعلوم الدينية ، ثمّ انتقل أخيراً إلى طرابلس الشام، قبل أنْ يُقدِم على بغداد عاصمة الإمبراطورية الإسلامية ..

ذلك أنّ بغداد التي تعلّق بها أبو العلاء كثيراً ،وكانت حلمه الذي طالما اشتاق إلى واقعيته ؛ لم تكن عاصمة الخلافة الإسلامية وحسب ، ولكن كانت كذلك مُلتقى التيارات الفكرية المتباينة ، يتواجد فيها اللُّغويّ ،والنحويّ ،والأديب ،والناقد ، والشاعر ، والفيلسوف ، والمتكلّم ، والمُفسّر .. على اختلاف مشاربهم الثقافية ، ونزعاتهم ومذاهبهم الفكرية . ولك أنْ تتخيّل هذه التيّارات الفكرية ، والنوابغ الإنسانية أمام رَجُلٍ كأبي العلاء المعرّي ، " فُطِر على استعدادٍ عقليٍّ باهرٍ، ساعده كثيراً على تحصيل ثقافةٍ واسعةٍ

---

(١) الإنصاف والتحرّي : لابن العديم ص ٣٢ . وقد ذكرت كثيراً من هذه المواقف التي تظهر حافظة أبي العلاء ونوادره ، مجلة المقتبس : العدد (٥٣) في مقال " أبو العلاء المعري " بقلم : عيسى اسكندر معلوف ، لمن أراد المزيد .

متنوعة ، وذكاءٍ حادٍّ لا يكاد يُخطئ شيئاً، وذاكرةٍ قويّةٍ لا تسمعُ شيئاً إلاّ استوعبته و وعته ، وعقليةٍ قادرةٍ على التّعمُّقِ في كُلّ شيءٍ[١] .

إذاً عزم أبو العلاء على الرحيل إلى " بغداد " دار العلم كما وصفها ، وذلك في سنة ٣٩٨هـ ، ليُوسّع دائرة معارفه بالاطّلاع على ما في خزائنها من الكتب ، والتفاعل مع أعلامها في مجالسهم ومنتدياتهم ، حيث يدخلها سنة ٣٩٩ هـ ، ويُقيم بها سنةً ونصف السّنة ، لم يُقْرَأْ عليه كتابٌ من هذه الخزائن إلاّ حفظه ، حتّى لنجده يقول في رسالةٍ له كتبها إلى أهل بلدته " المعرّة " ، بعد منصرفه من العراق : " وأحلفُ ما سافرتُ استكثرُ من النّشب، ولا أتكثّرُ بلقاءِ الرجال ، ولكن آثرتُ الإقامة بدار العِلْم ، فشاهدتُ أَنْفَسَ ما كَانَ لمْ يُسْعفِ الزّمن بإقامتي فيه[٢]".

وهناك بدار العلم " بغداد " ،سنحت الفرص المواتية لأبي العلاء ليسمعَ كثيراً، ويستسيغَ كثيراً ، ويُصقِل ذهنه كثيراً . ولم يقف عند الأخذ من كنوز بغداد ، بل أسهم في مناقشات المجالس الأدبية ، والندوات الفكرية والعلمية، حفظاً ، وتحويراً ، وإضافةً ، ومناقشةً ، وقبولاً ورفضاً ؛ في

---

(١) راجع هنا للمزيد:

– في الشعر العباسي ، نحو منهج جديد : د. يوسف خليف ، ص ١٦٥ ، الفكر والفنّ في شعر أبي العلاء المعري .. رؤية نقدية عصرية للتّراث : د. صالح اليظي ، ص ٨ وما بعدها ، تجليات الإبداع الأدبي .. دراسات في العصر العباسي الثاني : د. محمود علي عبد المعطي ، ص ٢٥٥ ، " أبو العلاء المعري رهين المحبسين " حسن كامل الصيرفي ، مجلة الهلال المصرية : العدد الرابع ، السنة الحادية والثمانون ، أول إبريل ١٩٧٣م ،صفر ١٣٩٣هـ .

(٢) الإنصاف والتحرّي : لابن العديم ، ص ١٤ .

مشاركة نشطة فعلية ، مؤكداً " أنّ حبّ العلم وطلب الشهرة وسعة العيش ، وبغض الحياة السياسية بحلب وما آلت إليه من الاختلاف والفتن ، هي التي كوّنت في نفس أبي العلاء عزمَه على الرحلة عن بلاد الشام إلى بلاد العراق[١] " ، لاسيّما وأنّ عصر أبي العلاء تميّز بالمجامع العلمية ببغداد ..

فقد كان للأدباء على اختلافهم مجمعٌ زعيمه الشريفُ الرضيُّ ، ومجمعٌ آخر حول الوزير سَابُورَ بن أردشير ، الذي خصّص الثعالبي في اليتيمة فصلاً لمدحه . وكان هناك مجامعُ فلسفيةٌ وكلاميةٌ ، منها العامة التي يشهدها الناسُ كافةً ، كمجمع الشريف المرتضى ، ومنها الخاصة التي لا يشهدها إلاّ أفرادٌ تآخوا واتّفقوا على ألاّ يحضرَ اجتماعَهم إلاّ من نحا نحوهم في الرّأي كالمجمع الذي كان يلتئمُ يوم الجمعة من كلّ أسبوع ، في بيت أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري ، صاحب الصّوت البعيد في علم تقويم البلدان ..

وكان ببغداد في عهد أبي العلاء مكتبتان عامتان انفردتا بالشهرة في الآفاق، وبالخلود في التاريخ : إحداهما قديمة أسّسَها الرشيد وهي بيتُ الحكمة ، والأُخرى حديثةٌ أنشأها سابورُ بن أردشير ، سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ، وقد وصفها ياقوت عند كلامه على محلتِها وهي بين السورين فقال :إنّها اشتملت على أصحّ الكُتب وأوثقها في كلّ فنّ، وقلّما خلا كِتابٌ من كتبها من خطِّ إمام معروف[٢].

---

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين ، ١٣٠ .

(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء : ص ١٣٢ – ١٣٣ بتصرف .

هذه القيمة لبغداد كانت دافعاً قوياً لانفتاح المعرّي عليها ، وانفتاحها وأهلها عليه في الوقت نفسه ، وقد أكّد طه حسين أنّ أهل بغداد قد سَعَوا إلى أبي العلاء، فلمّا جالسوه وناقلوه القول في فنون الأدب ، بهرهم منه علمٌ جمٌّ وفضل كثير، فرحّبوا به ، وخلطوه بأنفسهم ، كما قال أبو العلاء في إحدى رسائله إلى خاله أبي القاسم ، بعد رجوعه إلى المعرّة : " .. ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد ، فقد أفردوني بحسن المعاملة ، وأثْنَوْا عَلَيّ في الغيبة ، وأكرموني دون النظراء والطبقة[١] ". وهذه الرواية تُثبت أنّ أبا العلاء لم يَدْرِس العلم ببغداد ،" ولم يجلس مجلس التلميذ من أحد ، وإنّما كان يسعى إلى دروس العلماء ومجالسهم ، كما يسعى الندُّ إلى الندِّ ، والنظيرُ إلى النّظير[٢]"، فذاع صيته ، وأصبح حديث بغداد ومجالسها العلمية والفكرية والأدبية ، ووقعت عليه عينُ الجمع ؛ خاصتهم وعامتهم ، حتّى أصبح محلّ التّجلّة والإكرام ، الأمر الذي أوغر الصدور عليه من الحاقدين والحسدة ، فحاكوا المكائد ضدّه في كلّ مجلس ، وكادوا له في كلّ منتدى يرتاده ، حتّى أحالوا حياته إلى جحيم !! .

وقد دفع طموحه من قبل ، وقوة شخصيته الواعية إلى أن يستغلَّ كلّ ما أُوتي من عِلْمٍ وفكر ومعرفة في تحقيق أمانيه ، فاستقرّ رأيه على استيطان بغداد ، لكنه لم يمكث بها سوى هذه الفترة الوجيزة التي لم تصل أكثر من عام ونصف العام . " حيث لم تستقم له الحياة في بغداد كما تمنى – لاسيّما بعد الشهرة التي ظفر بها ، إذْ لم يبق من أدباء بغداد وعلمائها وفقهاها من

---

(١) السابق : ص ١٣٧ .

(٢) نفسه : ص ١٣٩ وما بعدها .

لم يعرفْه ولم يُعجَبْ به – لأنّ أخلاقه لم تكن أخلاق الرجل الاجتماعي الذي يستطيع أن يأخذ من الناس وأن يعطيهم ، وأن يُقارضهم المنافع بما فيها من خير وشر ، وأن يصبر على أذاهم حيناً ، ويلقاهم بالأذى حين تُمَكّنُه الفرصة ..

لم يكن أبو العلاء من هذا كله في شيء ، وإنّما كان دقيق الحسّ، رقيق الشعور ، سريع التأثر، سريع ردّ الفعل كما يُقال . وقصته مع الشريف المرتضى ومع أبي الحسن الربعي تدلان على ذلك دلالة واضحة . وإذا أضفنا إلى هذا أنّ صاحبنا لم يسلم من حسدِ الحُسّاد مع شهرته الذائعة ، وحقد الحاقدين ، تبيّنت أنه لم يكن له ببغداد مقام ، ولا أمل في المُقام . وإذن فقد اضطر إلى أن يُفكّر في العودة إلى المعَرّة ليقيم فيها وادعاً مطمئناً، تاركاً بغداد التي قدّمت إليه كأساً من الشهرة العلمية ، مِزاجُها اليأسُ من حسن المُقام ، ثمّ أخلفه الأملُ وَعْدَهُ ، ونجّز إليه اليأسُ وَعِيدَه فشخص من بغداد كارهاً ، وقدْ عجّل مرضُ أُمّه فراقها في أسرع وقت ممكن[١] ..

وما كاد يرتحل عن بغداد ، ويمضي في طريقه مُسرعاً إلى المعرة يُسابق الموتَ إلى أمّه – على حدّ وصف طه حسين[٢] – والحُزنُ يُسايره، والأسى يقوده ، حتّى يلقاه النّعْيُ بأنّ الموت قد سبقه إلى تلك التي كان يدّخرها سلوة عمّا جنت عليه الأيامُ : من عثور الجدّ ، وسوء الحال ..

---

(١) مع أبي العلاء في سجنه : طه حسين ، من ص ٨١ وما بعدها ، بتصرف .

(٢) مع أبي العلاء في سجنه : ص ٨٤ ، بتصرف .

فقد كانت اليد الحانية التي " كانت تُشرف على شئونه ، تُهيئ له الطعام في الخُلوة التي كان يحلو له أن يتناوله فيها حتى لا يطّلع عليه أحد، وتهيئ له السكون الذي يأنس فيه مع وحيه وإلهامه ، وهو يذكر في إحدى مراثيه لها نعمها عليه ، فيقول :

كفاني ريّها مِنْ كُلّ رِيّ *** إلى أن كِدتُ أحسب في النعام

أي أنها أغنته عن الناس بما تُقدمه له في هذه الرعاية من حبّ وعطف حتى ليحسب نفسه كالنعام الذي يجتزئ بالرطب ، وهو العشب الأخضر عن الماء، فإذا أعوزه الرطب لم يرد الماء[١] .

ولاشك أنّ رحيل هذه الأم التي أغنته عن الناس يوماً ما قبل أن يتركها راحلاً إلى بغداد ، يُعدّ نكبة عظيمة في حياة شيخ المعرّة لا تقل عن نكبة العمى ، وجاءت نقطة تحول كبيرة في حياته وفي جزعه من العيش ودنيا الناس ، إذْ أفرزت حُزناً عميقاً آسياً أخرجه عن طوره أو كاد . فيعود حزين النفس أكثر من قبل ، ولا تراه إلاّ مكتئب الفؤاد، ملازماً داره ،زاهداً في المطعم والملبس ،عازفاً عن الزواج والنسل ، راضياً بالخشن من اللباس وأقساه ، وبالغليظ من الفراش وأجفاه .

ونتفّقُ مع الدكتور طه حسين فيما ذهب إليه[٢] من أنّ هذه النّكبة – رحيل أمه عن دنياه – قد وطّنت نفسه ، وقوّت عزمه على ما كان قد صمّم عليه من العزلة والانفراد والاستسلام لغريزته التي حرّمت عليه أكثر اللذات ، أو قل : كلّ اللذات ، وكثير ممّا أباحه الله للناس من طيبات الحياة ..

---

(١) مجلة الهلال المصرية : العدد (٤) ، السنة (٨١) ، إبريل ١٩٧٣م ، ص ٣٠ .

(٢) مع أبي العلاء في سجنه : ص ٨٤ وما بعدها .

فهو إذن لم يُنْكَبْ بالإخفاق فيما كان يرجوه من الحياة الآمنة الخصبة في بغداد وحسب ، وإنّما نُكب فيما كان يرجوه من لقاء أمه التي كان لخبر وفاتها في نفسه سورة عنيفة ، بذل فيها آخرَ ما كان يملك من ثقة بالدهر ، واطمئنان إلى الأيام ، فهي المرأة الوحيدة في حياته ، والتي أحبّها حباً لم يحببه أحداً قط ، تلك التي مانعت في سفره إلى بغداد إيثاراً لنفسها به ، وإيثاراً له بالعافية ، وإشفاقاً عليه من المشقّة والجهد ، فلمّا ألحّ عليها في ذلك وتبيّنت حرصه عليه واتّصال نفسه به عرفت كيف تُضحّي بنفسها ابتغاء مرضاته ، وكيف تُخلّى بينه وبين ما أراد !!! . من هنا كان فَقْدُ هذه الأمّ المعطاء عظيماً في حياة أبي العلاء ، وذو مكانة أثيرة في قلبه ونفسه، وفكره وإبداعه ، بل وفي تكوين شخصيته الفذّة التي شغلت الدنيا قديماً وحديثاً بالبحث والدرس .

* وفَقْدُ الأمّ المِعطاء :

كان من المؤثرات التي جاءت مع عودة شيخ المعرة من بغداد عام ٤٠٠هـ ، فغيّرت وجه حياته كثيراً ولوّنت جانباً كبيراً من تجاربه الشعرية بالحزن والأسى . فقد آلمت هذه المحنة أبا العلاء حتى أخريات حياته ، إذْ كان شديد التعلّق بأمه ، يتحدّث إليها حديث الصدق العاطفي المشبوب المُتّقد ، فحنينه إليها لم ينقطع طوال حياته منذ أن رحلت عن دنياه ، وطيفها لم يبرح ذاكرته – وهو الشيخ الهرم الذي اقترب من آخرته ..

نرى ذلك جلياً وهو يحمد لابن أخيه (أبي محمد عبدالله بن سليمان القاضي) – صنيعه الكريم معه ، ورعايته له ، التي أحيت بوجدانه وأشعلت في مشاعره حنان أمه الراحلة ، وعطفها عليه ، وهو الضرير الذي يحتاج إلى رعاية خاصة .. فيقول مخاطباً ابن أخيه :

أعبدَ الله ، ما أسْدَى جَميلاً *** نظِيرَ جَميلِ فِعْلك غَيْرُ أُمّي

سَقَتْنِي دَرَّهَا ورَعَتْ وبَاتَتْ *** تُعَوِّذُنِي وتقْرأُ أَوْ تُسَمِّي
جَزَاكَ البارِئُ ابنَ أخٍ كريماً *** أَبَــرَّ بِمُعْجِزٍ في بِرّ عَمٍّ(١) .

وحديثه عن أمه هنا – وهو الشيخ الهرم – يؤكد أنّها كانت من أبرز مكونات شخصيته المتفردة ، وهو سرّ تذكرها عبر سِنيّ عمره ، وإيمانه بأنّه لا عزاء إلاّ في لحاقه بها ، حيث يؤنسه ويسعده أنْ يدفن إلى جوارها ..

على أنّ قلبي آنسَ أن يُقال لي *** إلى آلِ هذا القبر يدفنك الآلُ

ذلك أنّ موت أمه – وهو في الطريق من بغداد عائداً إلى المعرة مسقط رأسه – هزّ حياته هزاً عنيفاً ، فقد كانت ينبوع الحبّ الخصب الصادق ، الذي كان ينساب في أعماقه ، ويروي ظمأه ، ويخفف من وطأة قيد العاهة التي أحاطت بسياجها حياته كلها ، لاسيّما وأنه ظلّ راهباً في محراب الكلمة والفكر والرأي ، وحيداً دون صاحبة ولا ولد، فلم يتزوج ، ولم يُنجب أبناءً ، " فتصدّع نزوعه إلى المناصب المرموقة ، وانغلقت أمامه الآفاق(٢) "، وأضاف رحيلها إلى مأساته مع العمى والمرض ما ملأ نفسه يأساً من الحياة وزهداً فيها ، وظلاماً ورغبةً عارمة في العزلة التي اختارها لنفسه بعد عودته من بغداد ..

فراح ينعي حبيبته الحميمة والوحيدة ، التي اهتز لها كيانه، وسيطرت عليه الهواجس والظنون ، وامتلأ وجدانه شعوراً بالضياع والعزلة في العالم من حوله ، بعد أن تركته وحيداً ، حتى لقد ذهب منادياً على الموت ، طالباً من يحمل أشواقه وتحاياه العطرة لروحها، وأصبح كالرضيع الذي لم يبلغ

---

(١) الإنصاف والتّحرّي : ص ٦ .

(٢) أبو العلاء المعري : عائشة عبد الرحمن ، الفصل الثالث " موت الأم " من ص ١٢٩ – ص ١٣٨ ، ط القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

الفطام بعد ، ولا يملك سوى الشعور المرهف[١] ، والوهن والعجز في الوقت ذاته، متسائلاً متمنياً لقاء هذه الحبيبة التي ملكت عليه حياته الباقية ..

فَيا رَكْبَ المَنُونِ أَمَا رسُولٌ ** يُبَلّغُ رُوحَها أرجَ السّلامِ
ذكياً يُصْحَبُ الكَافورُ منهُ ** بِمِثْلِ المِسْكِ مَفْضُوضَ الخِتَامِ
مضَتْ وقَدِ اكْتَهلَتْ وخِلْتُ أنِّي ** رَضيعٌ مَا بلَغْتُ مَدَى الفِطَامِ
سألتُ متى اللّقاءُ؟ فقِيلَ: حتّى ** يَقُومَ الهَامِدُونَ مِنَ الرِّجَامِ
فليتَ أَذِينَ يومَ الحشْرِ نادَى ** فأَجْهَشْتِ الرّمامُ إلى الرِمّامِ[٢].

ويستطيع الدارس لحياة أبي العلاء أنْ يُدرك من خلال أشعاره في اللزوميات وغيرها من أعماله الإبداعية ، ومن رسائله إلى خاله عن أمه بعد رحيلها وحرمانه من إشفاقها ورعايتها ، بقف على الدور الرئيس الذي كانت تقوم به الأم في حياته ، ويكشف مدى الصلة القوية ، والعاطفة الجياشة القابعة في أعمق أعماقه الوجدانية ، والتي كانت تربطهما معاً ، الأمر الذي جعله يُعلن عن عجزه عن نسيانها ، حينما يخلُد إلى فراشه للنوم ، كما يؤكد ذلك قوله[٣] :

إذا نِمتُ لا قيت الأحبّة بعدما *** طوتهم شهورٌ في التّراب وأحوال

وممّا زاد في تألم أبي العلاء ، وفي شدّة إحساسه بهول الفاجعة والإحساس بوطأة المصاب ، أنّ رحيلها إلى عالم الشهادة جاء مع بداية مرحلة العزلة التي مارسها على نفسه وذاته عقب عودته من بغداد إلى

---

(١) لغة أبي العلاء المعري في رسالة الغفران : د. فاطمة الجامعي الحبابي ، ط دار المعارف ، مصر ، ص ١٧ بتصرف .

(٢) شروح سقط الزند : ج٤ ص ١٤٢ ، ط الدار القومية للنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ م .

(٣) سقط الزند : ج ٤ ص ١٦٩١ .

مسقط رأسه معرة النعمان– وإنْ أقبل عليه طلابه ومريدوه – تلك العزلة التي امتدت طوال حياته حتى انتقل إلى مثواه الأخير في "
الثالث عشر من شهر ربيع الأول من عام ٤٤٩ هـ ، وله من العمر نحو ست وثمانين سنة[١]، حيث انطفأ هذا القنديل من هذا الذكاء المتّقد ، وتوقّفت إلى الأبد نبضات هذه البصيرة التي كانت تَنْفُذ – على الرغم من الظلام الدامس المحيط بها – إلى أبعد ما يتصور الخيال ، بعد ما تركت تُراثاً إنسانياً حضارياً نال شهرة ذائعة شرقاً وغرباً ، قديماً وحديثاً ، في الدرس والبحث والمطالعة ، واستشراف عوالمه الإبداعية المتنوعة .

وقد ذكر أحمد تيمور باشا أربعاً وسبعين مؤلفاً[٢]، ما بين شعر ونقد، ورسائل متنوعة ونحو ، وفلسفة وفكر ، وشروح ومراجعات ،أشهرها : جامع الأوزان ، الراحلة : في ثلاثة أجزاء في تفسير لزوم مالا يلزم ، رسالة الغفران، الفصول والغايات ، زجر النّابح : وهو مؤلف يتعلّق بلزوم مالا يلزم والدفاع عنه ، السجع السلطاني : وهو يشتمل على مخاطبات الملوك والوزراء وغيرهم من الولاة، سقط الزند : وهو من أشهر دواوينه الشعرية، حيث يشتمل على أكثر من ثلاثة آلاف بيت ، ضمنه شعره في صباه، وسمّاه بذلك لأنّ السقط أول نار تخرج من الزَّنْد ، فشبّه شعره الأول به ..

---

(١) يُراجع هنا للمزيد : أبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا ، ص ٢١ ، تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين ، ص ١٧٣ ، ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء : د. عفيف عبد الرحمن ، ص ٣٧٨، تجليات الإبداع الأدبي : د. محمود علي عبد المعطي ، ص ٢٥٣ .

(٢) يُنظر هنا : الإنصاف والتحرّي : لابن العديم ، من ص ١٨ – ٢٤ ، أبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا : فصل في مؤلفاته ، من ص ٦٥ – ص ٧٧ .

وشرح كتاب سيبويه ، وعون الجُمل ، والصاهل والشاحج .. والذي يتكلم فيه على لسان فرس وبغل ، وعبث الوليد .. وهو شرح لديوان البحتري ، واللامع العزيزي في شرح شعر المتنبي ، ومعجِزُ أحمد .. ويذهب البعض إلى أنه هو اللامع العزيزي في شرح شعر المتنبي ، وذكرى حبيب في تفسير شعر أبي تمّام ، ولزوم مالا يلزم ، مثقال النظم في العروض ، نظم السور[١] ..

وغير ذلك من هذا الكون الفسيح من العلم والمعرفة ، والفلسفة والحكمة ، والشاعرية المجيدة ، والذي انتقل من محبسيه اللذين ضماه على ظهر البسيطة ليطوى في محبسٍ آخر مظلم ، بعد أنْ ملأ الدنيا من علمه، وفكره ، وفلسفته ، وحكمته ، وشاعريته ، نوراً يملأ الأبصار حتى اليوم ويستولى على البصائر ، ويُحيّر الأفكار .

فإلى بعض دُرره الإبداعية نتلمس بعضاً من هذه العبقرية في قصيدة جاءت من عيون الشعر العربي ،صدقاً وفناً ، شكلاً ومضمونا ، إلى مرثيته الدالية في رثاء صديقه الفقيه الحنفي أبي حمزة :

غيرُ مُجدٍ في مِلّتي واعْتقادي *** نوحُ باكٍ ولاَ تَرنُّمُ شــادِ

---

(١) الإنصاف والتحرّي : لابن العديم ، من ص ١٨ – ص ٢٤ ، أبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا : من ص ٦٥ – ص ٧٧ .

المشهد الثاني
النص.. القصيدة

١- غيرُ مُجْدٍ في مِلّتي واعتقادِي[١] نَوْحُ باكٍ ولا ترنّمُ شَادِي

٢- وشبيهٌ صوتُ النّعِيّ إذَا قِيـ سَ بصوتِ البشيرِ في كُلِّ نَادِي

٣- أَبَكَتْ تِلكُمُ الحمامةَ أمْ غَـ نّتْ علي فرعِ غَصْنِها المَيّادِ

٤- صَاحِ هَذِي قُبورُنَا تملأُ الرُّحْـ ـبَ فأينَ القُبورُ منْ عَهْدِ عَادِ

٥- خَفّفِ الوَطْءَ مَا أظُنُّ أدِيمَ الـ ـأرضِ إلاّ منْ هذهِ الأَجْسَادِ

٦- وَقَبيحٌ بنَا وإنْ قَدُمَ العَهْـ ـدُ هَوانُ الآباءِ والأَجْدَادِ

٧- سِرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهَواءِ رُوَيْداً لاَ اخْتِيالاً علَى رُفَاتِ العِبادِ

٨- رُبّ لَحْدٍ قدْ صَارَ لَحْـدًا مِـــرَاراً ضَاحِكٍ منْ تزَاحُمِ الأضْدَادِ

٩- وَدَفِينٍ علَـــى بقَـــأيـــــاَ دَفِينٍ في طَـــويلِ الأزمَـــانِ والآبَـــادِ

١٠- فَاسْأَلِ الفَرْقَدَيْنِ عمّنْ أحَسَّا منْ قَبِيلٍ وَآنَسَا منْ بِلاَدِ

---

(١) ديوان سقط الزند : أبو العلا المعري ، المجموعة الكاملة، شرح وتعليق الدكتور: م. رضا، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ١٩٦٥م، صـ ١١١- ١١٥.

١١- كمْ أقَامَا علَى زَوَالِ نَهارٍ   وأنَـــارَا لِمُـــدْلِجٍ في سَوَادِ

١٢- تَعبٌ كُلّهَا الحياةُ فما أعْـــــ   جَبُ إلاّ مِنْ رَاغِبٍ في ازْدِيَادِ

١٣- إنّ حُزْناً في ساعةِ الفَوْتِ أضْعَا   فُ سُرورٍ في سَاعةِ المِيلادِ

١٤- خُلِقَ النّاسُ للبقاءِ فَضَلّتْ   أمَّـــةٌ يَحْسَـــبُونَهُمْ لِلنّفـــادِ

١٥- إنّمَا يُنْقَلُونَ منْ دارِ أعْمَا   لٍ إلي دارِ شِقْوةٍ أوْ رَشادِ

١٦- ضَجْعَةَ الموتِ رَقْدَةٌ يَسْتَريحُ الْـ   جِسْمُ فيهَا والعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

١٧- أبَنَـــاتِ الهَدِيلِ أسْعِــدْنَ أوْعِدْ   نَ قَليـــلَ العَـــزَاءِ بِالإسْعَادِ

١٨- إيـــهِ لِلـــهِ دَرُّكُــــنّ فَـأنْتُــــنّ   اللّوَاتِي يُحْسِنَّ حِفْظَ الوِدَادِ

١٩- مَا نَسِيتُنّ هَالِكاً فِي الأوَانِ الْـ   خَـــالِ أوْدَى مِــنْ قَبْلِ هُلْكِ إيّادِ

٢٠- بَيْدَ أنّي لاَ أرْتَضِي مَا فَعَلْتُنّ   وَأطْـــــوَاقُكُـــنّ فِـي الأجْيَـــادِ

٢١-فَتَسَـــلّبْنَ وَاسْتَعِــرْنَ جَمِيعـــــاً   مِنْ قَمِيصِ الدُّجَى ثِيَابَ حِدَادِ

٢٢- ثُمَّ غَرِّدْنَ فِي المَآتِمِ وَانْدُبْـ   ـنَ بِشَجْوٍ مَع الغَوانِي الخِرَادِ

٢٣- قَصَدَ الدّهْرُ مِن أبِي حَمْزَةَ الأَ وّ   ابِ مَوْلَى حِجاً وخِدْنَ اقْتِصَادِ

٢٤- وَفَقِيهاً أفْكَارُهُ شِدْنَ لِلنّعْــــــــ   ـمَانِ مَا لَمْ يَشِدْهُ شِعرُ زِيَادِ

٢٥- فَالعِـــرَاقِـــيُّ بَعْـدَهُ لِلْحِجَازِيّ قَلِيلُ الخِلاَفِ سَهْلُ القِيَادِ

٢٦- وَخَطِيباً لوْ قَامَ بَيْنَ وُحُوشٍ عَلّــمَ الضّــارِيَــاتِ بِرَّ النِّقَادِ

٢٧- رَاوِياً لِلحَدِيثِ لَمْ يُحْوِجِ المَعْـ ـرُوفُ مِنْ صِدْقِهِ إلى الإسْنَادِ

٢٨- أنْفَقَ العُمْرَ نَاسِكاً يَطْلُبُ الْعِلْـ ـمَ بِكَشْفٍ عَنْ أَصْلِهِ وَانْتِقَادِ

٢٩- مُسْتَقِي الكَفَّ مِنْ قَلِيبِ زُجَاجٍ بِغُرُوبِ اليَرَاعِ مَاءَ مِدَادِ

٣٠- ذَا بَنَانٍ لاَ تَلْمَسُ الذَهَبَ الأحْـ ـمَرَ زُهْداً فِي الْعَسْجَدِ المُسْتَفَادِ

٣١- وَدِّعَا أَيُّهَا الحَفِيَّانِ ذَاكَ الشَّـ ـخْصَ إنَّ الوَدَاعَ أَيْسَرُ زَادِ

٣٢- وَاغْسِلاَهُ بِالدّمْعِ إنْ كَانَ طَهْراً وَادْفِنَاهُ بَيْنَ الحَشَا وَالفُؤَادِ

٣٣-وَاحْبُوَاهُ الأَكْفَانَ مِنْ وَرَقِ المُصْـ ـحَفِ كِبْراً عَنْ أَنْفَسِ الأبْرَادِ

٣٤- وَاتْلُوَا النّعْشَ بِالقِرَاءَةِ وَالتّسْـ ـبيـــحِ لاَ بِالنّحِـــيبِ وَالتَّعْدَادِ

٣٥- أَسَـــفٌ غَيْـــرُ نَافِـــعٍ وَاجْتِهَادٌ لاَ يُـــؤَدِّي إلـــي غَنَـــاءِ اجْتِهَـادِ

٣٦- طَالَمَا أَخْرَجَ الحَزِينَ جَوَى الْحُزْ نِ إلى غَيْرِ لاَئِقٍ بِالسّدَادِ

٣٧- مِثْلَ مَا فَاتَتْ الصّلاةُ سُلَيْمَا نَ فَأَنْحَى عَلَى رِقَابِ الجِيَادِ

٣٨-وَهْوَ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الإنْسُ وَالجِنُّ بِمَا صَحّ مِنْ شَهَادَةِ صَادِ

٣٩- خَافَ غَدْرَ الأَنَامِ فَاسْتَوْدَعَ الرِّيـ ـحَ سَلِيلاً تَغْذُوهُ دَرَّ العِهَادِ

٤٠- وَتَوَخّـــى لَـــهُ النّجَـاةَ وَقَدْ أَيْـ ـــقَنَ أَنَّ الْحِمَـامَ بِالْمِرْصَادِ

٤١- فَـرَمَتْـــهُ بِـــهِ عَلَى جَانِبِ الْكُرْ سِيِّ أُمُّ اللّهَيْمِ أُخْتُ النّآدِ

٤٢- كَيْفَ أَصْبَحْتَ فِي مَحَلَّكَ بَعْدِي يَا جَدِيراً مَنّي بِحُسْنِ افْتِقَادِ؟

٤٣- قَـــدْ أَقَـــرَّ الطَّبِيبُ عَنْكَ بِعَجْزٍ وَتَقَضَّـــى تَـــرَدُّدُ العُـــوَّادِ

٤٤-وَانْتَهَى الْيَأسُ مِنْكَ وَاسْتَشْعَرَالوَا جِدُ أَنْ لاَ مَعَادَ حَتَّي الْمَعَادِ

٤٥- هَجَـــدَ السَّاهِرُونَ حَوْلَكَ لِلتَّمْـ ـرِيضِ وَيْـــحٌ لِأَعْيُنِ الهُجَّادِ

٤٦- أَنْتَ مِنْ أَسْرَةٍ مَضَوْا غَيْرَ مَغْرُو رِينَ مِنْ عِيشَةٍ بِذَاتِ ضِمَادِ

٤٧- لاَ يُغَيِّـرْكُـــمُ الصَّعِيـــدُ وَكُونُوا فِيهِ مِثْلَ السُّيُوفِ فِي الأَغْمَادِ

٤٨- فَعَـــزِيـــزٌ عَلَـــيَّ خَلْطَ اللّيَالِي رِمَّ أَقْدَامِكُـــمْ بِـــرِمِّ الْهَـــوَادي

٤٩- كُنْتَ خِلَّ الصِّبَا فَلَمَّا أَرَادَ الْـ ـبَيْنُ وَافَقْتَ رَأْيَهُ فِي المُـــرَادِ

٥٠- وَرَأَيْتَ الوَفَاءَ لِلصَّاحِبِ الأَوّ ل مِـــنْ شِـــيمَةِ الكَـــرِيمِ الجَوَادِ

٥١- وَخَلَعْـــتَ الشَّـــبَابَ غَضًّا فَيَا لَيْـ ـتَكَ أَبْلَيْتَـــــهُ مَـــعَ الأَنْـــدَادِ

٥٢- فَـــاذْهَبَـــا خَيْـــرَ ذَاهِبَيْنِ حَقِيقَيْـ ـــنِ بِسُـــقْيَا رَوَائِحٍ وَغَوَادِي

٥٣- وَمَـــرَاثٍ لَـــوَ انّهُـــنّ دُمُـــوعٌ لَمَحَوْنَ السُّطُورَ فِي الإِنْشَادِ

٥٤- زُحَـــلٌ أَشْـــرَفُ الْكَوَاكِبِ دَاراً مِنْ لِقَاءِ الرَّدَي عَلَى مِيعَادِ

٥٥- وَلِنَـــارِ المَرِّيخِ مِنْ حَدَثَانِ الـدَّ هْرِ مُطْفٍ وَإِنْ عَلَتْ فِي اتِّقَادِ

٥٦- وَالثَّرَيَّا رَهِينَةٌ بِاجْتِمَاعِ الشَّـــ ـمْلِ حَتّى تُعَدَّ فِي الأَفْرَادِ

٥٧-فَلْيَكُنْ لِلْمُحَسِّنِ الأَجَلُ المَمْـ ـــدُودِ رَغْماً لِآنْفِ الحُسَّادِ

٥٨-وَلْيَطِبْ عَنْ أَخِيهِ نَفْساً وَأَبْنَا ءُ أَخِيـــــهِ جَرَائِحُ الأَكْبَـــادِ

٥٩- بَـــانَ أَمْـــرُ الإِلهِ وَاخْتَلَفَ النّا سُ فَدَاعٍ إِلى ضَلاَلٍ وَهَادِ

٦٠- وَالّذِي حَـــارَتْ البَـــرِيّةُ فِيهِ حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ

٦١- وَاللّبِيبُ اللّبِيبُ مَنْ لَيْسَ يَغْتَرّ بِكَـــوْنٍ مَصِيـــرُهُ لِفَسَـــادِ[1]

(١)ديوان سقط الزند: أبو العلا المعري ، المجموعة الكاملة، شرح وتعليق الدكتور: م. رضا، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، ١٩٦٥م، صـ ١١١- ١١٥. شـــروح سقط الزند، القسم الثالث، تحقيق الأساتذة، مصطفي السقا وأخرون، إشراف د. طه حسين، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

المشهد الثالث

المشهد الشعري للدالية .. قراءة نقدية عصرية

(١)

ترجع قيمة هذه المرثية لأبي العلاء المعري بوصفها النافذة التي نطلّ من خلالها على عالم أبي العلاء النفسي التشاؤمي ، لاسيّما وأنّ هذه القصيدة قد لاقت قبولاً وإقبالاً من دارسي ونقدة الإبداع العربي قديماً وحديثاً . ولا أجد أدلّ على ذلك من قول عميد الأدب العربي فيها من " أنّ العرب لم ينظموا في جاهليتهم وإسلامهم ، ولا في بداوتهم وحضارتهم قصيدة تبلغ مبلغ هذه القصيدة في حسن الرثاء ..."[(١)] " .

ومن يقرأ هذه القصيدة قراءةً نقدية فنيّة يقف على الكثير من منازل الحُسن فيها ؛ حُسن في مطلعها الفلسفي ، حُسن في بنائها الفني ، حُسن في صدقها الفنيّ ؛ فكرةً ، ومعجماً ، وتصويراً ، وإيقاعاً . كلّ ذلك ينقله صوتٌ إبداعيٌّ واحدٌ ،هو صوت الشاعر/ الوفيّ / الإنسان / أبي العلاء . ولا عجب في ذلك ، " فقد كان الشعر ولايزال ،وسيبقى تجسيداً لاستجابةٍ إنسانيةٍ ،ولرؤية العالم رؤية جمالية فردية في آن ..."[(٢)] ".

ولأنه الشاعر الفيلسوف الحكيم ، جاء هذا الصوت الشعري الذاتي ، مُترجِماً لنغمٍ مُتعدّدٍ ، في : فلسفة الموت ، وعبثية الحياة ، ومصير الإنسان في هذه الحياة ، وحقيقة الكون الذي رأى " مصيره لفساد " ، على نحو قوله في ختام القصيدة :

---

(١) من تاريخ الأدب العربي : طه حسين ، المجلد الثالث ، مرجع سابق .

(٢) شعرنا القديم والنقد الحديث : د. وهب أحمد رومية، ط الكويت ،١٩٩٦م، ص٤٣.

واللّبيبُ اللّبيبُ مَنْ ليس يَغْتَرّ بكونٍ مصيرُه لِفسادِ

وهو يؤكد في هذا البوح الآسِي التشاؤمي في كثير من هذا النغم الشعري ؛ تلك النظرة الضبابية اليائسة من الحياة .. " تعبٌ كُلّها الحياة"، مُعلِناً في الوقت ذاته عن حكمته وفلسفته في النفس والكون والحياة والموت ، حيث لا جدوى – من وجهة نظره – من أيّ شيءِ في هذه الدنيا ، وكُل ما فيها إلى زوال واندراس . فهي في حقيقة الأمر نسجُ خيال ، ولا ينفع فيها سرورٌ أو حزنٌ ، أو بكاءٌ أو غناءٌ ، أو نوحٌ أو ترنّمٌ ، أو قبحٌ أو جمالٌ ، أو خيرٌ أو شرٌّ ، الكُلّ يُشبه الآخر ، حتّى هذه الأرض التي ندبُّ عليها هي في الأصل نتاجُ أجساد الموتى ، كما ذهب بتأمله الفكري المكلوم ، المُثقل بالهموم والأحزان ، على نحو قوله من القصيدة التي معنا :

صَاحِ هَذِي قُبُورُنَا تملأُ الرُّحْـــ *** ــبَ فأين القبورُ من عهدِ عادِ
خَفّف الوطْءَ ما أَظُنُّ أديمَ الْ *** أرضِ إلاّ مِـنْ هـذهِ الأجسـادِ

والحقّ أنّ هذه الذات الإنسانية الشاعرة ، بهذا التأمل الفكري المكلوم، المثقل بالهموم والأحزان ، تكشف عن شخصية فريدة متنوعة الرؤى ، جمعت بين عقلٍ متوهجٍ بمشارب عديدة ، رزينٍ راجحٍ ، مُدرك لأسرار وحقيقة الكون من حوله ، وبين وُجدانٍ رهيف يئنُّ ويتألّم ، ويحزن ويأسى من أجل الآخرين ، كما يئنّ لآلامه وأحزانه الذاتية .

ويظهر من استقراء هذه المرثية عبر آفاقها الفنية والفكرية ، أنّ نفثتها الشعرية جاءت مزيجاً من هذا المُكوّن الفكري المتنوع في مضامينه ، ودالّه الذي جاء في النهاية مشهداً شعرياً واحداً في نسيج واحدٍ يُبرزُ ويُجسّمُ موقف شاعرنا المعري النفسي تُجاه الفقد والألم والحزن الذي أحاط بحياته ، والخوف من هذه النهاية التي سرعان ما تحرمه من الأحباب .

ومن رَصْدِ هذا المكون الفكري المتنوع لهذه المرثية ، وجدنا تجربتها الشعرية نسيجاً ومشهداً شعرياً واحداً ، للتمازج الفني بين هذه الآفاق الشعرية المتباينة نفسياً و إبداعاً ووجداً :

* الأفق الأول :

العتبات الأولى للنصّ .. مقدمة فلسفية في الكون والحياة والموت .

الأبيات من : (١ – ١٦) .

* الأفق الثاني :

حِدادٌ .. ونوحٌ .. وبُكاء ٠

الأبيات من : (١٧ – ٢٢) .

* الأفق الثالث :

أبو حمزة .. دائرة الوجد العلائي

رثاء أبي حمزة ، وتعداد مناقبه ، وبيان مكانته ومنزلته

الأبيات من : (٢٣ – ٥٢) .

* الأفق الرابع :

نهاية النصّ .. صبرٌ ، وسلوى ، وتأمّل .

الأبيات من : (٥٣ – ٦٤)

(٢)

وإنّ من يُنعم النظر في العتبات الأولى لهذه القصيدة ، يجد المعري يُعبّر في أبيات مطلعها السّتة عشر بصوت العقل ،عمّا يتوارى بين جوانحه ، من بؤسٍ ويأسٍ ، وألمٍ وحزنٍ ، وتبرّمٍ وضيقٍ بالحياة والكون من حوله ،وإنْ كان يرثي صديقه الحنفي (أبا حمزة). لكنه يئن في الواقع لأحزانه الذاتية – التي عهدناها عليه منذ مطلع حياته حينما رثى والده وهو لم يزل فتى ، وعجب سامعوه ودُهشوا لشاعريته الفنية بعد ما أحال دموعه على أبيه إلى مرثية حروفها الأحزان ، وسِفرها قلب مُضني ، وقافيتها اللوعة والأسى ، وبحرها من فيضانات العبرات،" ومّما قاله في هذه المرثية مُخاطباً والده[١]:

فليتك في جفني موارَى نزاهة **
بتلك السجايا عن حشايَ وعن ضِبْني
ولو حفروا في درةٍ ما رضيتُها **
لـجسمك إبقـاءً عليه مـن الـدفـنِ

ولا ريب في أن يظهر أبو العلاء على هذه الروح ، فشعره هو شعر الألم الإنساني بكل أنماطه ، وهو ما ظهر جلياً من الجو العام لهذه المرثية التي معنا في صديقه (أبي حمزة) ، حيث يتألم لرحيل حبيب من بني البشر .

ذلك أنّنا إذا نظرنا إلى القصيدة نظرة عامة في ضوء نفسية شاعرنا التي كان المطلع تقديماً وصدىً لها ، وجدنا اختلافاً بيّناً ، حيث انتهج المعريّ منهجاً سلكه كثيرٌ من القُدامى في مطالعهم الشعرية ، وهو " منهج فنيّ يُتيح للشاعر أنْ يُبرز لنا من خلاله خواطره ومشاعره نحو موضوع

(١) أبو العلاء المعري ، حياته وشعره : سمير الصارم ، ط دار كرم ، دمشق ، سورية ، بدون تاريخ ، ص ٤٥ ، بتصرف.

القصيدة ، وكأنّ الشاعر بهذا يحتفظ لنفسه بالحقّ في أنْ يُبدي رأيه أو مشاعره الحقيقية نحو موضوع القصيدة، ولا يرضى بأنْ يكون محض أداةٍ إذا دَعَتْهُ المُناسبة ..[١] ".

وحقيقة الأمر أنّ أبا العلاء المعري قد وجد نفسه المُعذّبة ، وذاته المتمردة على الحياة ومن فيها ، في أبيات المطلع ؛ تلك العتبات الأولى للنصّ ، والتي أعلن فيها عصيانه ورفضه للحياة التي لا تُساوي شيئاً عنده، ولا جدوى من العيش فيها – وهو الرافض لها في كثير من آثاره الإبداعية والفكرية .

فقد استطاع الرجل بأسلوبه الفكري الفلسفي، وبعيداً عن الجمود والعقلانية، أو التقريرية، أو الخطابية ، التي كثيراً ما تُغلّف الأساليب الفكرية والفلسفية – أن يُبدع أسلوباً فكرياً فلسفياً بما أُوتِيَ من مقدرة

إبداعية فنية ، صبّ من خلاله في مطلعه مشاعره وانفعالاته الحقيقية نحو الكون والحياة والموت ، منطلقاً من موضوع القصيدة الذي ألهب فكره قبل مشاعره .

فها هو ذا يبدأ قصيدته بإعلان تمردٍ إنسانيٍّ على الحياة من حوله، فيقف أمام اللاجدوى في كلّ شيء – على حدّ تعبير الدكتور صالح اليظي[٢]، وهو حينما يفعل ذلك بقوله : (غير مجد) إنّما يبدأ من حيث اكتمل موقفه النهائي من الوجود فكراً وشعوراً ، إنّه يرى ألاّ جدوى في البكاء

---

(١) مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية : د. عبد الحليم حفني ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٧ م ، ص ٦ .

(٢) راجع للمزيد هنا : الفكر والفن في شعر أبي العلاء ، رؤية نقدية عصرية للتراث : د. صالح حسن اليظي ، ص٤٥٢ وما بعدها ، بتصرف .

والغناء ، ولا في الحزن والسرور ، مادامت النهاية الحياتية صفراً ، وقبض ريح ، حيث الموت ؛ فهذا الذي ينعي ميّتاً ، يتساوى لديه بمن يُبَشّر بمولود، ولا فرق بينهما عند شاعرنا ..

وشبيه صوتُ النّعيِّ إذا قِيـ *** سَ بصوتِ البشير في كُلِّ نادِي

وهل أدلُّ على تساوِي النَّعِيّ والبشير ، والأحزان والمباهج ، من أنّ صوتَ الحمامة يكونُ لدَى قومٍ نواحاً مبكياً ، ولدى آخرين شدواً مبهجاً في الوقت ذاته ؟ وإنْ كانت العرب في حقيقة الأمر تجعله مرّةً غناءً ومرّةً نوْحاً ..

أبكتْ تِلْكُمُ الحمامةُ أمْ غَـ نَّـ تْ على فرْعِ غُصْنها المَيّادِ

لكنّ شاعرنا لا يدري حقيقة حال هذه الحمامة ، تبكي أم تُغنّي، وأيّ الصوتين تعنِي : النوح أم الترنّم ؟!! ، فالرجل في واقع الأمر لا يحزبه الوقوف على حقيقة صوت هذه الحمامة ، أو تحديد هويّة صوتها ، لتساوي الأمرين كليهما عنده ، فكليهما مقيسين إلى حتمية الفناء المطلق . وكأنه ينظر بنظرة شؤم لما حوله ، وهي نظرة فلسفية، وتفسير للحياة فرضته عليه ظروف الموقف المصاحب، الأمر الذي أكد عليه في المطلع ،(غير مُجدٍ في ملّتي واعتقادي) وكأنه يلمح إلى مذهبه الفلسفي في الحياة ، حيث يصل به معتقده في الحياة بعدم الاعتراف بواقعها حتى ولو كان هذا الواقع هو سُنّة الحياة، من : حزن وسرور ، وبكاء وغناء .

ثمّ لا يلبث الرجل أنْ يُمعن في تكثيف عاطفته ، وما يصَّاعدُ بكيانه من شعور مُتَحفّز ، فيتكئ على المحسوسات لتخليق اللاجدوى وتحقيقها في لحمة النص ، وتوكيداً لموقفه من الكون ، فإذا كانت قبور العصور الأخيرة من عُمر الزمن السحيق تملأ الآفاق على هذا النحو ، (صاحِ هذي قبورُنا تملأُ الرُّحب ...)، فأين إذن قبور البشرية عبر كل تلك العصور الغابرة ،

من عهد قوم عاد حتى عصر الشاعر نفسه ؟!. ولا يملك المرءُ إلاّ أن يُسلّم معه بالفعل بأنّ ظهر الأرض الذي تطؤه الأقدام إنْ هو في الحقيقة إلاّ من رفات الآباء وذرات رماد الأجداد ، ومن ثمّ فالبشر ملزمون – خُلقياً وإنسانياً – أنْ يحترموا أصولهم الأولى ، لا بمجانبة المشي المغرور المختال فحسب، بل بالتحليق فوق الأرض إن استطاعوا حتى لا يطئوا بأقدامهم رفات آبائهم وأجدادهم الأولين [١] :

خفّفِ الوطء ما أظنُّ أديمَ الْـــ *** أرضِ إلاّ من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإنْ قَدُمَ الـعهْـــ *** ـدُ هوانُ الآباءِ والأجـــدادِ
سرْ إنِ استطعتَ في الهواءِ رُويداً *** لا اختيالاً على رُفاتِ العبادِ

ومن البدائه أنّ الرجل لا يسعى إلى مجرد القول : بأنّ الإنسان من تُراب وإلى التّراب يعود ، وإنّما هو الإبداع الفني لحقيقة الرجل العاطفية والنفسية والفكرية في أنّ اللاجدوى ، واللامنطق يحكمان كلّ شيء ، وأول ما يحكمانه هو المصير الإنساني ذاته ، إذ إنّ الإنسان في حياته الكابية تلك ، أحقر شأناً من أن يردّ عن نفسه غائلة الموت على الرغم من تيقظه له وخوفه غير المحدود منه ، وهو الذي يلقي كلّ لحظة العديد من البشر في غياهب الأرض حتى تزاحمت بهم اللحود ، الغني والفقير ، الكريم والبخيل ، العالم والجاهل ، الأبيض والأحمر ، الذكر والأنثى ، الصغير والكبير، الصالح والطالح ، المؤمن وغير المؤمن ، الحاكم والمحكوم ،،،،

رُبّ لَحْدٍ قدْ صارَ لحداً مِراراً *** ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضداد

---

(١) الفكر و الفن في شعر أبي العلاء المعري : ص ٤٥٢ ، بتصرف .

بل أضعف من أن يكفّ عن تقديم فرائس جديدة للموت بتجنب الزواج والعزوف عنه ، واعتزال الإنسان ، وتعطيل الحياة من حوله، ومع ذلك فالموتى كُثُرٌ من قديم الزمان تتوالى على الدفن ..

ودَفينٍ على بقـايـــا دفـيـنٍ *** في طويلِ الأزمانِ والآبادِ

وفضلاً عن كون أبيات الدالية التي معنا أنموذجاً للخلق الفني الرفيع ، فإنّها تثبت دون أدنى شك أنّ الجمال في الفنّ ليس شيئاً آخر غير تخليق العاطفة في صورها المؤدية الموحية بحيث تكون كل من العاطفة والصورة هي الأخرى ، ولا يهمّ بعد ذلك أن تكون تلك الصورة في رقّة الزهور، أو في بشاعة الرفات والقبور على نحو ما فعل المعري هنا في داليته ، فنحن في الحق لننبهر بتلك القبور واللحود والأشلاء ، وفي الوقت نفسه تقشعر منها الأبدان ، وترتجف الأرواح لمدى عبث الحياة – (تعبٌ كُلّها الحياةُ ...) - وبشاعة مصير الإنسان على مرّ الدهور والأزمان ..

ودَفينٍ على بقـايـــا دفـيـنٍ *** في طويلِ الأزمانِ والآبادِ

ولكنّ الخلق الفني المقتدر – الذي أكّده الدكتور اليظي[١] – الذي وحّدَ ما بين الفنان والتجربة والمتلقين في كون عبقري واحد ؛ حافل بالكشف والرموز والإيحاءات[٢]. ناهيك عن الحكمة ، والفلسفة التي ضربت بجذورها في شاعرية الرجل ،ممّا نراه جلياً في هذه القصيدة.

---

(١) الفكر و الفن في شعر أبي العلاء المعري : ص ٤٥٣ ، بتصرف .

(٢) فلا عجب إذن من قول العقاد عند حديثه عن هذه القصيدة من أنها : " لم ينظم مثلها في لغة العرب ، ولا يذكر أنّنا اطلعنا في شعر العرب على خير منها في موضوعها " ، راجع هنا : الديوان في الأدب والنقد : عباس محمود العقاد ، إبراهيم عبد القادر المازني ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، ٢٠١٤م ، ص ٢٠ .

فلقد أفصح أبو العلاء في هذه المرثية عن تمكن الفكر الفلسفي من شاعريته ، مؤكداً قراءاته للفكر الفلسفي في عصره ، وتأثره به أيّما تأثر، وإن أضاف إلى فلسفة عصره وقراءاته في هذا الباب رأيه وفكره الخاص الذي آمن به ، وارتضاه لنفسه ،ممّا نجده كثيراً في شعره ، لا سيما لزومياته، وهذا أثر من فكر أرسطوطاليس الذي يدّعي بقاء النفس الطاهرة والخبيثة ممّا جاء في شعره ، حيث قال ببقاء النفس الطاهرة والخبيثة بعد الموت ..

يقول أبو العلاء :

خُلِقَ الناسُ للبقاءِ فضلّتْ *** أُمّـةٌ يـحـسَبُـونـهُمْ للنّـفادِ
إنّما يُنقلُون مِنْ دارِ أَعْمَا *** لٍ إلى دارِ شِـقـوَةٍ أو رشـادِ

والبيتان يؤكدان في الوقت نفسه إيمان المعريّ الفطري ، حيث يدلان على مدى تمسّكه بِعُرى الإيمان . فقد ذكر شُرّاح سقط الزند قولهم في إيمان المعريّ وهم يتوقّفون أمام البيتين السابقين : " هذان البيتان شاهداَ عدْل على تمسّك قائلهما بعُرى الإيمان[١] " . إذْ أنهما– على حدّ كلام الخوارزمي هنا – كلاهما من كلام الإمام عليّ رضي الله عنه : " أيّها الناس ، إنّما خُلقنا للبقاء لا للفناء ، وكُلّكم من دارٍ تُنقَلُون ، فتَزَوّدُوا لِمَا أنتم صائرون إليه ، خالدون فيه " ... وهذا منظوم أيضاً من قول عمر بن عبد العزيز : "أيّها الناس ، إنّما خُلِقْتُم للأبد ، وإنّما تُنقلُون من دارٍ إلى دارٍ[٢] " .

على أنّ أبا العلاء، ذا الكون النفسي والفني المتفرد ، لا يكتفي خلقاً لعالمه الفني المتميّز هذا ، وبخاصة في رصده رفات البشر متناثرة على

---

(١) شروح سقط الزند : ص ٩٧٩ .

(٢) المصدر السابق : ص ٩٧٩ .

ظهر البسيطة ، بل يُمْعِنُ في تكثيف هذا العالم العلائي الخاص ، فيلجُ قبراً ليُشخّصَ ما بين موتاه من تناقض ..

رُبّ لَحْدٍ قدْ صارَ لحداً مِراراً *** ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضداد
ودَفينٍ على بقـايـــا دفـيـنٍ *** في طويلِ الأزمانِ والآبادِ

وهو إذْ يفعل ذلك يُذهلنا حقاً بمقدرته الفنيّة الفائقة على أن يرثي للإنسان ، ويسخر في الوقت نفسه من غروره الدنيوي ، ويؤكد في ذات الوقت على تناقض الحياة وعبثيتها ، كلُّ ذلك في آنٍ واحد . إنّ هذا اللحد ليضحك ساخراً من تكدّس أشلاء الصالحين والطالحين ، والملوك والصعاليك بداخله دون تمييز بين الأقدار والمقامات الدنيوية الموهومة ، وبديهي أنّ الذي يضحك ساخراً ليس غير أبي العلاء نفسه الذي قلنا عنه في غير موضع : إنّه لا يقنع إلاّ بأنْ يعرف الحقائق ، وأن يقولها على طريقته ، ولقد عرف الرجل بالفعل حقيقة الإنسان وتعاسة مصيره ، فقال كلمته ، وكانت كبيرة وجهيرة ..

واللّبيبُ اللّبيبُ مَنْ ليسَ يغْتَرّ بِكَونٍ مَصيرُه لِفسادِ

ولا يلبث الرجل أن يصل ما بين الأرض والسماء امتلاكاً لما يصور به عاطفته وحقائق نفسه ، فيرفع بصيرته عن وهدة القبور إلى ذُرا الكواكب ليشهد الفرقدين على ما استقرّ بكيانه من تعاسة مصير الإنسان والكائنات ، فَلَكَمْ شهد الكوكبان اندثار عظماء ، بل شعوبٍ وأوطانٍ بأكملها ، وهما في علوهما هذا باقيان ..

فَاسْأَلِ الفَرْقَدَيْنِ عمّنْ أحَسَّا *** مـنْ قَبِيلٍ وَآنَسَا مـنْ بِـلاَدِ
كمْ أقَـامَـا علَى زَوَالِ نَـهـارٍ *** وأنَـــارَا لِمُـــدْلِجٍ في سَوَادِ

فما أتفه الإنسان إذن وما أهون مصيره ، وما أشقى حياته تلك المليئة الموبوءة بالآلام والأحزان ، والمنتهية بفجيعة الموت ، وما أعجبَ

هذا الإنسان الذي يعلمُ تلك الحقائق يقيناً ، ثمّ لا يكفُّ عن التشبث بالبقاء ورفد الحياة – معذبته – بأسباب الاستمرار ..

تَعَبٌ كُلُّهَا الحيــاةُ فمَا أعْـ *** ـجَبُ إلاّ مِنْ رَاغِبٍ في ازْدِيَادِ

ويعلم الإنسان كذلك أنّ المباهج إنْ وُجِدت في الحياة فهي نادرة شحيحة تكاد لا تُقاس إلى الأحزان والآلام ..[1]

إنّ حُزْناً في ساعةِ الفَوْتِ أَضْعَا *** فُ سُرورٍ في سَاعةِ المِيلادِ

(١) للمزيد ، راجع: الفكر والفن في شعر أبي العلاء : ص ٤٥٢– ص ٤٥٣ ، بتصرف .

(٣)

ولهذا لا لغيره كانت نظرة المعري" إلى سرّ الموت ، فلم يره في مظهره الضيّق القريب ، حادثاً متكرراً تختم به حياة كلّ فرد . بل رآه على حقيقته الخالدة العميمة . رآه كما بدا منذ القدم لبدائه الحكماء ... حرباً سرمدية قائمة بين قوّتين خفيتين ميدانهما كلّ نفس حيّة ، وكلّ ذرة في طباق الأرضين وأجواز السماوات – هاتان القوّتان هما الخير والشرّ أو هما النور والظلام أو هما الحقّ والباطل أو هما البقاء والفناء . لكلّ منهما جنود لا تغفل ، بل لكل منهما أعوان لاتني تُقبل وتدبر ولا تتمهل ..

ولم تكن نظرة المعريّ الشاعر الحكيم الفيلسوف المتشائم من واقعه المعيش – من الموت وحسب ، بل نظر إلى العالم الأرضي ، فلم يكن سرير محتضر ما رأى ، ولا نحباً مقضياً ما أحسّ ووعى ، بل كان ذلك الميدان : ميدان البقاء والفناء قائماً في كلّ كيان قائم ، متقادماً في كلّ ركن متقادم[١]، مؤكداً بذلك المنحى عذابات نفسه المكلومة من الحياة وعبثيتها حسب زعمه، هذه الحياة التي ينتهي فيها كلّ شيء إلى الهدم والفناء :

كلُّ بيتٍ لِلهَدْمِ ما تبني الوَرْ *** قاءُ والسّيِّدُ الرّفيعُ العِمادِ

ولأنّه الفيلسوف رأيناه يعلم أنّ القوّتين اللتين هذا أثر نضالهما في الأرض فاعلتان هذا الفعل لا محالة في أشرف كواكب السماء وأسماها ، وأضوأ عوالم النور وأذكاها على حدّ تعبير العقاد ، وعلى نحو قوله :

زُحَلٌ أشْرَفُ الكَواكِبِ دَاراً *** مِنْ لِقاءِ الرَّدى على مِيعادِ
وَلِنَارِ المَرّيخِ مِنْ حَدَثَانِ الـ ـدَّهْرِ مُطْفٍ وإنْ عَلَتْ في اتّقادِ
والثُّرَيّا رَهينَةٌ بِاجْتِمَاعِ الـ ـشَّمْلِ حتّى تُعَدَّ في الأفْرادِ

---

(١) الديوان في الأدب والنقد : عباس محمود العقاد ، إبراهيم عبد القادر المازني، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، ٢٠١٤م ، ص ٢١ وما بعدها ، بتصرف .

لا بل رأى الكون – في حالة وجوده – والفساد متصاحبين متلاحقين في كلّ حال

والّلبيبُ اللّبيبُ مَنْ ليسَ يغتَرّ بِكَونٍ مَصيرُه لِفسادِ

وكانت العبرة التي استخلصها من هذه الحقائق عبرة الواقف على مشهد من ذلك النضال السرمد ، فوق أفراح الإنسان وأحزانه ، ولو نطق الأبد لما تكلّم بغير قوله :

غيرُ مُجدٍ في مِلّتي واعتقادي *** نوحُ باكٍ ولا ترنّمُ شادِي
وشبيهٌ صوتُ النَّعِيِّ إذا قِيـ *** ـسَ بصوتِ البشيرِ في كُلّ نادِي

وإذا ذكر متاعب الحياة فكأنّما يذكرها ليصرفها عنه بنظره القانط المتشائم ،على حدّ وصف العقاد ' فيقول :

تعبٌ كُلّها الحياةُ فما أعْـ *** ـجَبُ إلاّ مِنْ راغِبٍ في ازديادِ
إنَّ حُزْناً في ساعةِ الفَوْتِ أضعا *** فُ سُرُورٍ في ساعةِ الميلادِ[(١)]

وكأنّ صاحبنا المعريّ اتّخذ من موت صديقه ميداناً يبثُّ فيه رؤيته الملوّنة بغربته النفسية والاجتماعية ، والتي ميّزته بينه وبين غيره من الشعراء الآخرين في الرِّثاء . حيث نراه هنا لا يعيشُ في إطار تجربته المُحدّدة في رثاء صديقٍ له وحسب ، ولا يقف عند سرد صفاتِ المرثِي ، ولكنّه ينطلق في جوٍّ رحيبٍ ، ويأتي بأحكامٍ عامةٍ تمسُّ أعماق الحياة وأسرارها ، وفلسفة الموت وحقيقته[(٢)] ؛ وإن لم ينس صاحبه الراحل في خِضَمّ تلاطم أفكاره ورؤاه الفلسفية حول تلك الحياة الفانية ، والموت والقبر ..

---

(١) للمزيد راجع هنا : المرجع السابق : ص ٢٢ ، ص ٢٣ .

(٢) ملامح وحدة القصيدة في الشعر العربي بين القديم والحديث : د. سامي منير ، ط أولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م ، ص ٢٦٣، بتصرف .

لم ينس صاحب المرثية الفقيه الحنفي ، حُجّة عصره ، الذي راح يُعدّد الكثير من مناقبه ، فهو الأوّاب المُعرض عن الدنيا وزخرفها ، والفقيه الذي هذّب الفقه – على حدّ تعبير المعري – ، وألّف بين مذاهبه ، وقارب بينها ، وهو حُجّة العراقيين في عصره (أي أصحاب المذهب الحنفي) ، والخطيب الذي روّض بحسن بيانه، ورقة موعظته ولطف كلامه – الوحوش الضّارية على الرحمة بالنِّقاد (صغار الغنم) ، وهو راوي الأحاديث الثقة الذي لا تحتاج روايته إلى سند ، النّاسكُ الذي أنفق عمره في طلب العلم والحكمة ، والوقوف على حقيقته ، كما جاء في قوله[1]:

قصدَ الدّهرُ منْ أبي حمزةَ الأ وّ ابِ موْلَى حِجاً وخِذْنَ اقْتِصادِ
وفقيهاً أفكارُه شِدْنَ للنُّعْـ *** ـمانِ مَا لمْ يَشِدْهُ شعرُ زِيَادِ
فالعراقيُّ بعدَهُ للحِجازيّ قليلُ الخلافِ سَهْلُ القِيَادِ
وخَطِيباً لوْ قامَ بينَ وُحُوشٍ *** عَلَّمَ الضَّارِياتِ بِرَّ النِّقَادِ
رَاوِياً لِلْحديثِ لمْ يُخْوِجِ المَعْـ *** ـرُوفُ مِنْ صِدْقِهِ إلى الإسْنَادِ
أنفقَ العُمْرَ ناسِكاً يطلُبُ العِلْـ *** ـمَ بِكشْفٍ عنْ أصْلِهِ وَانْتِقَادِ
ذَا بَنَانٍ لاَ تَلْمَسُ الذّهَبَ الأحْـ *** ـمَرَ زُهْداً في العَسْجَدِ المُسْتفادِ

ورجلٌ بهذه المناقب ، وتلك المكانة الدينية ؛ حُجّة في الفقه ، راوية للحديث ، خطيب مُفوّه ، أوّابٌ ، ناسكٌ في محراب العلم وعوالمه ، كل ذلك يُعطي أبا العلاء رحابة وصدقاً في التعبير والحديث عنه بهذه القداسة الإيمانية ، ويخلع عليه سمتاً إيمانياً لم نره كثيراً في قصائد الرّثاء على امتداد القصيد العربي . نستشرف هذه الملامح التي أبدعها المعري في

(١) شروح سقط الزند : القسم الثالث ، من ص ٩٨٥ – ص ٩٨٩ .

وصف فقيهه الحنفي الراحل في قوله وهو يُوصي صاحبيه بأنْ يُنزلاَ هذا الجسد منزلاً مباركاً ، بين الحشا والفؤاد ..

ودِّعَـا أيُّهَا الْحَـفِيّانِ ذاكَ الـ شَّـ خصَ إنَّ الوَداعَ أيْسَـرُ زادِ
وَاغْسِلاَهُ بِالدَّمْعِ إنْ كانَ طُهْراً *** وادْفِنَاهُ بينَ الحشَا والفُـؤادِ
وَاحْبُوَاهُ الأكْفَانَ مِنْ ورقِ المُصْـ *** ـحَفِ كِبْراً عنْ أَنْفَسِ الأبْرَادِ
واتْلُوَا النَّعْشَ بِالقراءَةِ والتَّسـ *** ـبيحِ لاَ بالنَّحيبِ والتَّعْدَادِ[١].

لكن المعري بعد هذه الوصية سرعان ما يعود إلى تصوير جزعه الذي أخرجه عن حكمة العقل ورزانته ، ويستغلُّ في ذلك قصّة سليمان – عليه السّلام – الذي سُخِّرَتْ له الإنسُ والجنّ والرّيح ، وكيف تربّصَ الموتُ بابنِهِ فألقتهُ على كرسِيّهِ جسداً لا حياةَ فيه . ثُمّ يعودُ إلى صاحبه الفقيد فيبكي صداقته ويُعدّد فضائله ومناقبه ، وكيف غيّبه الموت وانتهت حياته ، الأمر الذي أرغم المعري على أن يرتدّ إلى تأمّلاته الفلسفية ، حيث قضيّة الموت والحياة التي بدأَ بها قصيدته، ليقرّر الحقيقة الأزلية التي لاريبَ فيها؛ إنّها حقيقة المصير المحتوم الذي يتربّص بكُلّ ما يدبُّ على ظهر البسيطة، وما علَى وجه الأرض مِنْ حياةٍ وأحياءَ ..

كلُّ بيتٍ لِلهَدْمِ ما تبني الوَرْ *** قاءُ والسّيِّدُ الرّفيعُ العِمادِ[٢]

ليصل في ختام هذه المرثية إلى حقيقة هذا الوجود وما يضمّه من مخلوقات ، فيقرر رأيه وموقفه من هذ القضية التي فرضت نفسها على تجربته تلك ، بداية من مطلعها، وحتى ختامها ..

بانَ أمرُ الإلَهِ واختَلَفَ النَّا *** سُ فَدَاعٍ إلى ضَلالٍ وهَادِ
والّذي حَـارتِ البَرِيّةُ فيــهِ *** حيوانٌ مُسْتحدَثٌ مِنْ جَمادِ

---

(١) شروح سقط الزند : القسم الثالث ، من ص ٩٨٩ – ص ٩٩١ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٠٠٢ .

واللّبيبُ اللّبيبُ مَنْ ليسَ يغْتَرّ بِكَونٍ مَصيرُه لِفسادِ[١]

فالحياة فانيةٌ ، وكُلّ ما فيها إلى زوال ، وأمرُ الله لاَ مردَّ لهُ ، ولا رجعةَ فيه ، وتلك حقيقةٌ كونيةٌ ثابتةٌ في عقل وقلب كلّ مُوحدٍ بخالق الأرض والسماء ، ولكن لن ينتهي خلافُ المُفكّرين والفلاسفة حول هذه القضيّة إلى شيءٍ إلاّ الإيمانَ بقضاء الله الذي لاشكّ فيه ، واللبيبُ العاقل الحاذق مَنْ يعرفُ الحياةَ على حقيقتها ، وأنّ مصيرها إلى فناءٍ وزوالٍ[٢] .

(١) نفسه : ص ١٠٠٤ ، ص ١٠٠٥ .

(٢) تجليات الإبداع الأدبي : د. محمود علي عبدالمعطي ، ص ٢٧١ ، بتصرف .

(٤)

ولا شكّ أنّ المعري قد انتقى ألفاظ معجم هذه المرثية بدقة ووعي فني ، ليأتي مناسباً لموضوعها ، وغرضها ، ومن ألفاظ معجمه اكتسبت تجربته كلّ دلالاتها الفنية قبل المعنوية ، بل وأنطقت التراكيب بخيال خلّاق ؛ وإنْ قلّ الخيال في مثل هذه التجارب التي تُغلّف بالفكر الفلسفي والحكمة.

ولعلّ المفردات والتراكيب والصور الرامزة ، والمتناقضات بخاصة ، والتي استخدمها لإبراز موقفه من الحياة والكون فكراً وشعوراً تؤكد عبقرية المعري في إبداعه من جانب ، ومن جانب آخر تظهر عاطفته الصادقة في تجربة أقلّ ما توصف به أنها تتّسم بالإخلاص والصدق الفني .

نرى جلياً هذه الحميمية بين هذا المعجم الشعري للمرثية ، وبين عاطفته الآسية التي تتألم للإنسانية جمعاء ، وتشاؤمه من الموت ومن الحياة .. على سبيل المثال : (غير مُجدٍ ، نوح باك ، صوت النّعي ، بكاء الحمام ، القبور التي لا حصر لها ، أين القبور ؟ ، أديم الأرض من أجساد البشر ، القبح ، الهوان ، رُفات العباد ، اللحد ، تزاحم الأضداد في اللحد الواحد ، زوال النهار ، سواد الليل ، تعبٌ كلها الحياة ، الحزن في ساعة الفوت ، ضلال الأمم ، دار الشقاء ، ضجعة الموت ، العزاء ، الهلاك، قميص الدّجى ، الحداد ، المآتم ، الندب ، الشّجو ، الوداع ، الدمع، الدّفن ، الأكفان ، النّعش ، النّحيب ، التّعْداد، غدر الأنام ، الدواهي ، الفَقْد، العجز ، اليأس ، العظام البالية ، المراثي ، الرّدى ، جرائح الأكباد ، الهَدْم، الظّعن ، الفساد) .

وواضح من دلالات المفردات المعجمية السابقة صدق التجربة التي معنا وأصالتها ، ويزداد هذا الصدق أكثر وأكثر حينما تبرز عاطفة المعري التي عاشت ردحاً من الزمن غارقة في بحار الألم والحزن ،والوحدة والفقد ،

وبشاعة الموت ، وخواء حياته ، وهنا يكمن سّر جِدّتها . ذلك أنها " مرثية رائدة في معناها ، جديدة بجدّة الأيام والدهور ، أو قل هي تناسب كلّ العصور لأنها تُخاطب الفطرة الإنسانية ، والعواطف الكامنة في النّفس ، ولأنّها اتّخذت من العقل وسيلة للإقناع[١] .

وقد "عمد المعرّي إلى تكثيف ذلك الإحساس بالخواء واللاشيئية في الحياة ، بأن لجأ إلى أساليب بلاغية بعينها تتخلّق فيها عاطفته الآسية هنا في هذه التجربة ، وأورد كذلك المتناقضات متوالية بحيث يسقط كل معنى نقيضه ولا يبقى في النهاية إلاّ الإحساس باللاشئ ، ويمكن أن نرى هذا النهج العلائي في تخليق العاطفة عن طريق نمط الصياغة نفسه فيما يلي[٢] :

(فنوح الباكي) يتناقض مع (ترنّم الشادي)، (وصوتُ النّعيّ) يناقضه (صوتُ البشير) ، (وبكاء الحمامة) يناقضها (غناء الحمامة نفسها) ، (والسيّرُ رويداً برِفْقٍ) يُناقضه (السيرُ اختيالاً بتبخّترٍ) و(تعبٌ كلها الحياة) يتناقض مع (راغبٍ في ازديادٍ) و (الحزن في ساعة الفوت) يتناقض مع (السرور في ساعة الميلاد)، (والبقاء) يناقض (النّفاد – الهلاك) و(دار شِقوةٍ) تُناقض (دار الرشاد) و (ضجعة الموت) تُناقض (العيش) و(العزاءُ) يُناقض (الإسعاد) و(ومن تُغرّدْن في المآتم وتندبن) تُناقض (الغَوَانِي الخِراد) ، و(القراءة على الميت والتسبيح) تُناقض (النّحيب والتَّعْدَاد)

---

(١) الرّثاء في الشعر العربي ، أو جراحات القلوب : د. محمود حسن أبو ناجي ، ط أولى، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان،١٤١٠هـ – ١٩٨١م ، ص١٩٣ .

(٢) الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري : ص ٤٥٤ وما بعدها ،بتصرف .

و(الإنسُ) يُناقضُ (الجِنّ) ، و(الهَجْدُ) يُناقض (السّهَر) و(سُقْيَا روائِحٍ) تتناقض مع (سُقْيَا غوادِي) و(إذا البحرُ غاضَ) يناقض (فلا رِيَّ بادّخارِ الثِّمَادِ) و(الهَدْمُ) يُناقض (البناء) و (داعٍ إلى ضلال) يُناقض (داعٍ إلى هادِ) .

ترى هذا النهج العلائي أيضاً في العديد من الأساليب البلاغية التي جعلتنا نستشعر عاطفة شاعرنا ونُحسّها من أعماقها ، فنراه على سبيل المثال لا الحصر ، يبدأ مطلعه (بالنفي) :

غيرُ مُجدٍ في مِلّتي واعتقادي *** نـوحُ بـاكٍ ولا تـرنّـمُ شـادِي

وذلك للدلالة على اللاجدوى واللا فائدة وتساوي المتناقضات .

واستخدم النفي أيضاً في قوله :

سرْ إنِ استطعتَ في الهواءِ رُويداً *** لااختيالاً على رُفاتِ العبادِ

وذلك للسخرية من غرور الإنسان الذي يمشي متكبراً في الأرض ولو استطاع ان يمشي في الهواء لفعل ، جاهلاً أنّه يمشي على رُفات أجداده.

ومن قبل هذا البيت يستخدم أسلوب(القصر) للتأكيد ،في قوله :

خفّفِ الوطء ما أظنُّ أديمَ الْـ *** أرضِ إلاّ من هذه الأجسادِ

واستخدم أسلوب القصر أيضاً بـ " إلاّ " للتأكيد ، وذلك في قوله :

تـعبٌ كُـلّها الحيـاةُ فـمـا أعْـ *** ـجَبُ إلاّ مِنْ راغِبٍ في ازديادِ

ويؤكد أيضاً بـ " قد" التي تفيد التحقيق ، وذلك في قوله :

رُبّ لَحْدٍ (قدْ)صارَ لحداً مِراراً *** ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضداد

ويؤكد واقعاً مأساوياً بـ " إنْ " في قوله :

(إنّ)حُزْناً في ساعةِ الفَوْتِ أَضْعَا *** فُ سُرورٍ في سَاعةِ المِيلادِ

وللأمر دلالته على إلحاح العاطفة ، والتماس الشاعر مشاركة الآخرين إياّه تحقيقها ، ومن ثمّ نراه يلجأ إليه في أكثر من موضع في القصيدة ، ومن ذلك قوله :

خفّفِ الوطء ما أظنُّ أديمَ الْـــ *** أرضِ إلاّ من هذه الأجساد

وفي قوله :

سرْ إنِ استطعتَ في الهواءِ رُويداً *** لا اختيالاً على رُفاتِ العبادِ

وفي قوله :

فَاسْأَلِ الفرقدين عمّن أحسّا *** مِنْ قـبيلٍ وآنَـسَا مِـن بـلادِ

وفي قوله :

ودِّعَـا أيُّهَا الْحَـفِـيّانِ ذاكَ الـ شَّـ ـخصَ إنَّ الوَداعَ أيْسَرُ زادِ
وَاغْسِلاَهُ بِالدَّمْعِ إنْ كانَ طُهْراً *** وادْفِنَاهُ بينَ الحشَا والفُـؤادِ
وَاحْبُوَاهُ الأكْفَانَ مِنْ ورقِ المُصْـ *** ـحَفِ كِبْراً عنْ أَنْفَسِ الأبْرَادِ
واتْلُوَا النَّعْشَ بِالقراءَةِ والتّسـ *** ـبيـحِ لاَ بالنَّحيـبِ والتَّعْـدَادَ

وأسلوب النداء يستخدمه المعري كتعبير لُغوي عن وطأة العاطفة وتدفق الإحساس والشعور المأسوي ، على نحو ما نرى في قوله : (صاحِ هذي قبورُنا تملأُ الرُّحب ...) ،وقوله :(أبناتِ الهديل ...) ، وفي قوله : (ودّعا أيّها الحفيّان ذاك الشخص ...) .

وكان لأسلوب الاستفهام نصيبه الملحوظ في هذه التجربة ، لاسيّما وقد تملكت الحيرة من نفس شاعرنا من تناقضات حياتية عاشها ، كما نرى في قوله مثلاً مستفهماً عن بكاء الحمامة :

أبكتْ تِلْكُمُ الحمامةُ أمْ غَـ نَّـ تْ على فرْعِ غُصْنها المَيّادِ

فشاعرنا لا يدري حقيقة حال هذه الحمامة ، تبكي أم تُغنّي ، وأيّ الصوتين تعنِي : النوح أم الترنّم ؟!! ، ولذلك أعقب الاستفهام بالهمزة ، بـ"أمْ" للتسوية بين بكاء الحمامة وغنائها !!! .

ويستفهم بـ " أين " في موضع آخر استهوالاً للفناء المرعب الذي جاء سيفاً مسلطاً على رقاب العباد ، وذلك في قوله :

صاحِ هذي قبورُنا تملأُ الرُّحْـ *** ـبَ فأينَ القبورُ من عهدِ عادِ؟

وقوله مُستفهماً في حيرة بعد فَقْدِ صاحبه الفقيه الحنفي وقد وُرِيَ التراب :

كيف أصبحتَ في مَحَلّك بعدي *** يا جديراً مِنّي بِحُسْن افْتِقَادِ

وهكذا رأينا هذه الوسائل اللغوية وقد استشعرناها بالصوت والمعنى والإيحاء ، وتفاعلنا معها لأنها – من المؤكد – كانت موصولة مع المبدع، قابعة في أعماق عاطفته ، كما رأينا ذلك في بعض صوره الفنية التي ترجمت أصالة هذه التجربة من ناحية ، ومن ناحية أخرى كشفت عن معاناته ، على سبيل المثال :

–ففي قوله: " وشبيه صوت النّعيّ إذا قيس بصوت البشير "يشبه صوت النّعي بصوت البشير للدلالة على اللاجدوى ، وعلى عبثية الحياة ومعاناة الإنسان فيها ..

– وفي قوله " أبكت تلكم الحمامة أم غنّت ؟ " ، تَصَوّر صوت الحمامة شدواً مرة ، وبكاءً مرةً أخرى للدلالة على فقدان معنى الحياة ، وانتهاء كلّ شيء فيها إلى النهاية نفسها .

– وفي قوله : " هذي قبورنا تملأ الرحب " كناية عن صيرورة كل حي إلى الموت ، وعن الكثرة التي لاتحد لعدد الموتى .

وفي قوله :

خفّفِ الوطء ما أظنُّ أديمَ الْـ *** أرضِ إلاّ من هذه الأجسادِ

وقبيحٌ بنا وإنْ قَدُمَ الـعهْـ *** ـدُ هوانُ الآباءِ والأجـدادِ

سرْ إنِ استطعتَ في الهواءِ رُويداً *** لااختيالاً على رُفاتِ العبادِ

كناية تصويرية عن هوان المصير الإنساني وصيرورته إلى تراب يوطأ بالأقدام ، كما أنّ الأبيات الثلاثة مجتمعة ومتتالية ، رثاء مشفق

ممزوج بالسخرية المريرة لمصير الإنسان الشقي في الحياة ، وسخرية بجهالته وغياب حقائق وجوده في الكون عن بصيرته ، وهي أظهر وأكبر من أن تخفى أو يشك فيها .

– وفي قوله :

رُبّ لَحْدٍ قدْ صارَ لحداً مِراراً *** ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضداد
ودَفينٍ على بقــايـــا دفــيــنٍ *** في طَويلِ الأزمانِ والآبادِ

تعبير استعاري يكشف صورة اللحد الضاحك لتزاحم الأضداد وتكدّسها بداخله على اختلاف أنساقها ، وتؤكد في الوقت ذاته في البيت الثاني سخرية جزعه من غرور الإنسان الدنيوي وصراعه الذي لا يجدي ، إذ هو غافل عن حقيقة الحقائق وهي انتهاء كل شيء إلى المصير التّعس دون تمييز .

– وفي قوله :

فَاسْأَلِ الفَرْقَدَيْنِ عمّنْ أحَسَّا *** مـنْ قَبِيـلٍ وَآنَسَا مـنْ بِـلاَدِ
كمْ أقَـامَـا علَى زَوَالِ نَهــارٍ *** وأنَـــارَا لِمُـــدْلِجٍ في سَوَادِ

يلجأ للاستعارة المكنية حيث التشخيص التصويري للفرقدين بسؤالهما عمّن غيّروا وبادوا ، توكيداً لإحساسه المدرك بحتمية الموت ، وتهافت المصير الإنساني كله .

ومن يدقق النظر وينعمه في هذه الصور يستشعر المزج الفني بينها وبين عاطفة الشاعر ،وأسبغا معاً النص بوحدة فنية متجانسة فكراً وشعوراً كما ذهب الدكتور اليظي الذي وقف بوعي هنا .

(٥)

والوزن الشعري ، أو الوزن العروضي " أعظم أركان حدّ الشعر ، وأولاها به خُصوصيّة[١]" ، ذلك أنّ "... الموسيقى في الشعر لديها قدرة في تجسيد الإحساس المستكن في طبيعة العمل الشعري نفسه ، مع قدرة الشاعر على ربط بنائه الفكري متلبساً ببنائه الموسيقي[٢] " .

من هنا وجدنا البناء الموسيقي في مُقدّمة البُنى التي تتكون منها القصيدة عند العرب ، بل وجدنا كثيراً من النقاد قديماً وحديثاً يرى أنّ البناء الموسيقي يتقدّمُ على البناء بالصورة ، لأنّ القصيدة إذا فقدت العنصر النغمي " الوزن الشعري " تخرج من دائرة الشعر إلى دائرة الفنّ النثري . ولذلك عرّفوا الشعر بتعريفات لا تخرج عن هذه البنية الموسيقية ، ومن هذه التعريفات[٣] :

- قول قدامة بن جعفر في كتابه " نقد الشعر " : " الشعر قول موزون مقفى يدلُّ على معنى " .

- وقول طه حسين: "الشعر هو الكلام المُقيّد بالوزن والقافية ، والذي يُقصد به إلى الجمال الفني الذي يُلائم دون العصر ويتصل بنفوس الناس" .

---

(١) العمدة :لابن رشيق ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، ط أولى ، دار الطلائع ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م ، ١١٥/١ .

(٢) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د. صابر عبدالدايم ، ط أولى ، مكتبة الرشد ، ناشرون ، الرياض ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م ، ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٠ .

– والشعر عند عباس محمود العقاد : تجربة ذاتية تنبع من أعماق الشاعر، يعبر فيها عمّا يُحسّ ويشعر ، وليست شيئاً مفروضاً عليه من خارج ذاته .

– وميخائيل نعيمة يُعرّفُ الشعر بأنه : لغة النفس التي تُساق في عبارة جميلة التركيب ، موسيقية الرنّة .

وكلّها تعريفات تؤكد أنّ الوزن الشعري أو الإيقاع الموسيقي يمثل دائرة الوجد في التجارب الشعرية الحقّة ، لما له من قدرة كبيرة على تجسيد المشاعر والأحاسيس. إذْ "أنّ العلاقة بين المشاعر والأحاسيس التي تُصبغ النصّ الشعري بصبغة الصدق الفني ، وبين موسيقاه ، علاقة عضوية تجعل من النصّ صورة فنية متماسكة . فالشاعر البارع يمكنه أن يستغل الدفقات الموسيقية لتتناسق وتتموسق في الوقت ذاته بما يُصوره أو يُعبر عنه من إحساس مرتجف راعش، أو نظرة متأنية متأملة مستغرقة ، ويستطيع التلوين الموسيقي أن يُلائم بين هذه المواقف ، أو يجعل تجسيده للشعور ينطق بواسطة النغمة الموسيقية نفسها[١] " .

وإذا طالعنا إيقاع هذه القصيدة التي معنا ، وجدنا صاحبنا أبا العلاء يستخدم لموسيقاه بحراً شعرياً أصيلاً ، أضاف حيوية وصدقاً ، وتفاعلاً عميقاً إلى البُنى الفنية الأخرى لهذه التجربة الشعرية الرائدة التي ناسب مضمونها هذا البحر الشعري في " خِفّته في الذوق

(١) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د. صابر عبد الدايم ، ص ٢٣ .

والتقطيع[١]" و"خفّة حركاته ، ولِينه ، وسهولته[٢] " ، وهو بحر الخفيف التام بتفاعيله التالية :

فاعلاتن / مستفع لن / فاعلاتن *** فاعلاتن/ مستفع لن/ فاعلاتن

وهو بحر يقول عنه الخليل بن أحمد الفراهيدي : " إنّ موسيقاه تتّسم بالخفّة والسهولة[٣]"،وقد ذكر حازم القرطاجني في منهاج البلغاء " أن له جزالة ورشاقة[٤]". وهو بحر " ساطع النغم ، بارز الموسيقى ، ثم إنه صالح للحوار " بقال وقُلتُ " ، ويصلح للجدل وللترديد وللسرد ، ويمتلئ بالروح الملحمي ، وقد قيل : إنه أخفّ البحور على الطبع وأطلاها للسمع.

صبّ المعري في أوزان هذا البحر أشجانه ، وَوَجْدَهُ وأحزانه ، خاصة وهو بحر بلا شك يتميّز بوفرة المقاطع الصوتية الطويلة التي تُلبّي ذلك التّدفق العاطفي نحو فراق صاحبه الفقيه ، وقد هاجت نفسه وتاقت إلى الموت على أثر ذلك الفراق . فرأيناه في القصيدة وهو يستشرف آفاق الفكر الفلسفي ، حيث فلسفة الموت ، والحياة ،وطبيعة هذه الحياة الدنيا وحال الإنسان عليها ، حتّى اكتست نفسه بالفكر بآيات الفكر الفلسفي والحكمة من شدّة الوجد ، وتباريح الشوق إلى صاحبه ، فراح يُغرّدُ هنا وهناك بأفكارٍ

---

(١) الوافي في العروض والقوافي : للخطيب التبريزي ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، ط٤ ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م ، ص ١٣٩ .

(٢) علم العروض التطبيقي : د. نايف معروف ، د. عمر الأسعد ، ط أولى ، دار النفائس، بيروت ، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م ، ص ١٤١ .

(٣) موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د. صابر عبدالدايم ، ص ١٢٣.

(٤) دراسات في النص الشعري : د. عبده بدوي ، ط ٢ دار الرفاعي ، الرياض ، ١٩٨٤م ، ص ١٦٥ .

عديدة متنوعة في رؤاها بتنوع رؤاه حول الموت ،والحياة ،ونظرته لقبور المتأخرين من عهد عاد، وكذلك تعجبه من حال اللحد الذي يضم بين جنباته الأخيار والأشرار فيه، وحديثه لبنات الهديل (الحمام) وطلبه منهن حفظ الوداد بالنواح على صديقه أبي حمزة ، وحواره مع اليراع ، والدواة ، والمداد ،ورؤى أخرى عديدة تخيّر لها صاحبنا المعري هذا الوزن الطويل كثير المقاطع ، ليصبّ فيه ما ينفس عنه حزنه وجزعه ،ويأسه من طبيعة هذه الحياة التي كلّ ما يُبنى فيها ويُشيد مصيره إلى هباءٍ ..

كُلُّ بيتٍ لِلْهَدْمِ مَا تَبْنِي الوَرْ *** قَاءُ والسّيّدُ الرَّفيعُ العِمَادِ

ويكفي الفتى في هذه الحياة ظلّ شجرة يستره من قيظ الحر ،أو هطول المطر..

والفَتى ظَاعِنٌ ويَكْفِيهِ ظِلُّ السِّـ ـدْرِ ضَرْبَ الأطْنَابِ والأَوْتادِ

ومن يقرأ القصيدة مرّة تلو الأخرى يلحظ أنّ المعرّي رضي بوزن هذا البحر التام في تفاعيله الطويلة ، متعددة المقاطع (بحر الخفيف التام) ،وفضّله عن غيره ليصبّ تجربته في ما يُنفّسُ عن جزعه وحزنه ، حيث يُسعفه بذلك النغم الحزين المستطيل الذي كشف بجلاء عن الحالة النفسية التي ألمّت به ، وجعلته يختم القصيدة بهذه الحقيقة التي يجب أن يعيها كلّ البشر :

واللَّبيبُ اللَّبيبُ مَنْ ليسّ يَغْتَـرّ بِكوْنٍ مَصـيرُه لِفسَـاد

ولنترك الوزن جانباً بعد أن وقفنا على أبعاده ، لاسيّما الفنية التي أوقفتنا بدورها على الحالة النفسية للمعري في هذه التجربة' حيث القافية التي " تُشكّل عنصراً هاماً من عناصر الإيقاع في الشعر لما تضفيه

على التعبير الشعري من قيمة موسيقية خاصة، نتيجةً لتكرار عدّة أصوات في أواخر الأبيات من القصيدة[١] .

وفيها يقول الدكتور إبراهيم أنيس : إنّ " تكرارها هذا – أي القافية – يكون جزءاً هاماً من الموسيقى الشعرية ، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع للسامع ترددها ، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية منتظمة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص يسمى بالوزن ... كما أنّ التزام حركة بعينها قبل الروي مِمّا يكسب القافية نغماً وموسيقى[٢]"، تُضيف للإيقاع العام في البيت بُعداً آخر من النغم الشعري الذي عُرف به القدماء، وحرصوا على توهجه في تجاربهم الشعرية الخالدة .

ذلك أنه على قدر الأصوات المكررة في أواخر الأبيات يكون الكمال الموسيقي ، ويكون جمال الوقع في الأسماع ، وهذه حقيقة نستشعرها جيداً حينما نقرأ مثل هذه القصائد قراءات عديدة ، أو نلقيها إلقاءً شعرياً يُجسّد الكلمة والحرف والمدّ وكذلك صوت الحرف ، ونتفق مع من يقول : " إنّ التزام قافية واحدة – منذ القديم – يجهد الشاعر، لكننا نختلف معه في بقية قوله هنا : ويلزمه أحياناً طريقاً من التكلف والتعسّف فيه يُضحي بشيء من المعاني والأخيلة ، فإذا بنى الشاعر كلّ أبيات القصيدة على قافية واحدة زادت المشقة والعنت ، ووضح التكلف والتعسّف في بعض الأحيان [٣]" ..

---

(١) زكي مبارك شاعراً : د. العربي حسن درويش ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م ، ص ٢٤٧ ، بتصرف .

(٢)موسيقى الشعر : د. إبراهيم أنيس ، ط ٥ ،الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ص٢٤٦.

(٣) زكي مبارك شاعراً : د. العربي حسن درويش ، ص ٢٤٧ .

فليس كلّ من يلتزم القافية الموحّدة في قصائده يُصِبْهُ التكلف والصّنعة، وتتراجع معانيه وأخيلته، بل إنّ أكثر هؤلاء الذين التزموا قافية واحدة أكّدوا أنّهم يمتلكون شاعرية فذّة مجيدة، ومعجماً شعرياً ثراً يفي بعطائهم الشعري الذي خلّد تجاربهم حتى اليوم. ولو راجعنا لزوميات صاحبنا أبي العلاء لوقفنا على الدليل البيّن الذي يؤكد إحاطته بضروب الشعر وتحولاته، من حيث الأوزان والقوافي وخصائص الأصوات في الكلمة، وطبيعة الكلمة في التركيب الدلالي لجملته الشعرية، وطبيعة معجمه الشعري .

ولاشكّ أنّ الإيقاع السّخيّ الشّجيّ لبحر الخفيف التام ، وما تشتمل عليه موسيقاه من نغمٍ عاطفيّ حزين ، غير كئيب ، ومن غير ما وجعٍ ولا فجيعة ، جاء مناسباً لذلك البناء الصوتي لروي قافية هذه القصيدة (حرف الدّال) الموصول ، المكسور ، ومن قبله الردف الذي يزيد من الدلالات الفنية على الجو العام للقصيدة ، ويؤكد – في الوقت ذاته – امتداد هُوّة الحزن والأسى الذي تلفّع به المعرّي هنا بعد فَقْدِ صاحبه الفقيه الحنفي أبي حمزة . وقدْ قالوا عن حرف (الدّال) : " إنّها تُعبّر عن صورة العاشق الذي صار على هيئة الدَّالِّ[١] من شدّة الحزن[٢] " .

وإذا وقفت عند قافية أبيات هذه القصيدة من هذه الإشارات السابقة لها ، يظهر لك واضحاً ما ألقته هنا على الأبيات من تألق نغمي خاص ،

---

(١) والدَّلُّ : قريب من الهَدْي ، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشمائل ، وغير ذلك . انظر : لسان العرب : لابن منظور المصري ، دَلَلَ ،١٤١٣/٢ .

(٢) دراسات في النص الشعري : د. عبده بدوي ، ص ٦٧ .

ترجم – بكل صدق فنيّ – شعور المعري الصادق تُجاه المرثيّ ، وتستشعر الجديد من الرؤى والمعاني وأبعاد جديدة للتجربة مع كلّ قافية بيت من أبيات هذه المرثية .

ذلك أنّ حرف (الدّال) بحيويته ، ثمّ بكسره ، ومجيئه موصولاً عقب ردف ، قد ولّد هذا المعجم الشعري الفلسفي ، الفكري ،الشّجيّ ، الباكي، الآسي : (الشادي ، عادِ ، الأضداد ، الآباد ، الميلاد ، النّقاد ، الرشاد، السّهاد ، الإسعاد ، الوِداد ، الحِداد ، المداد ، الصادي ، النّآد، العُوّاد، الهُجّادِ ، الأغماد ، الهَوَادي ، الأنداد ، الأكبادِ ، العِماد ، الأوتاد ، الوَهَاد، إلخ " ، وكلّها ألفاظ ذات دلالات موحية وسّعت من طبيعة العمل الشعري ذاته ، كما دفعت التجربة الشعرية هي الأخرى بعمقها وصدقها وغِناها هذه الألفاظ لتختار لحظة ميلاد القصيدة التي تُولد من جديد مع كلّ قراءة جديدة لها عبر العصور.

وبعد ..

فلقد كانت هذه محاولتي في قراءةِ مرثيةٍ تُعدُّ من أبرز المراثي العربية القديمة ، ومن غُرر شاعرها ، قراءةً فنيةً عصريةً ، حاولت – قدر المستطاع – جاهداً على أن أقف على مرايا هذه المرثية ، ووجوه صاحبها ؛ الرائد المفكر الفيلسوف الحكيم الشاعر الأديب ، الذي عدّه القدماء والمحدثون " أهمّ شاعرٍ عرفه الشّعر العربي على امتداد تاريخه الطّويل[١]" . حيث عكست مرايا هذه التجربة ملامح عديدة متباينة ظهر عليها المعريّ، أهمها :

– وَلَعُهُ بالأساليب الفلسفية في الرثاء ، فمن القراءة الأولى لهذه التجربة يستكشف القارئ هذا الملمح المعري من مطلعها وختامها . الأمر الذي يجعلنا نوافق ما قال به الناقد الدكتور يوسف خُليف ، من أنّه " قد تمّ على يديه تحويلُ الشّعرِ إلى بناءٍ فلسفيّ تحوّلت قصائده معه إلى مجموعةٍ من النصوص الفلسفية ...[٢] " ، لكننا لا نتفق مع هذا التعميم ، وكذلك قوله : "... وتحوّل ديوانه خلالها إلى كتابٍ في الفلسفة[٣] " ، وهذا كلامٌ بعيدٌ عن المنهجية والعلمية ، ومنحى لا أصل له في عوالم النقد ..

فلا آراء نقدية قاطعة في الدرس الأدبي ، ولا آراء نقدية دون تدليل أو تعليل . وحقيقة الأمر أنّ شعرية المعرّي تلوّنت بالرؤى الفلسفية ، بعد أن تشبّع شاعرها العبقري بالفكر الفلسفي ، وتمكّن من أصوله ومدارسه ؛ وهو

---

(١) تجليات الإبداع الأدبي : د . محمود علي عبدالمعطي ، ص ٢٥٦ .

(٢) في الشعر العباسي ، نجو منهج جديد : د. يوسف خليف ، ص ١٦١ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٦٢ .

الشاعر الأديب الذي امتلك ناصية اللغة والشعر، فجمع باقتدار بين (اللغة والأدب والفكر) ليكون الشاعر الفيلسوف الذي طوّع الشعر ليحتضن الكثير من الفكر الفلسفي ، دون أن تفقد تجاربه الرؤى الفنية ، ووهج القصيد العربي الأصيل .

– يستشعر القارئ لهذه المرثية أنّ المعريّ جاء فريداً متميّزاً في رثائه عن كثير من شعراء العربية ؛ ذلك أنّ القارئ لو أنعم النظر في أبيات القصيدة وجد شاعراً إنساناً ، يبكي جماعة البشر ويتألم لوجودهم في هذا الوجود الزائل ، ويندب مصائرهم في هذه الحياة على مرّ العصور ، فلم يقف الرجل عند حدود رثاء صاحبه الفقيه الحنفي ، بل ذهب بعيداً إلى رثاء الإنسانية جمعاء، التي يُغيّبها الموت على حدّ رؤيته للموت والتي يشوبها التشاؤم والقلق النفسي .

– كما أنّ فنَّ الرثاء نراه يتنوع عند أبي العلاء إلى صور مختلفة عن بعضها ، الواقع الذي أكده أحد الباحثين المعاصرين[١] ، من أنّ صور الرثاء عند أبي العلاء تتوزّع على جانبين :

الأول : عام يحذو فيه حذو سابقيه من شعراء العربية ، ويلتزم الخطوات البنائية في المرثية ، من : ندب ، وتأبين ، وتعزية ، ومحافظة على خصائص أسلوب الرثاء ، وإيراد المعاني الخاصة بهذا الغرض ، ومراعاة المواقف الفنيّة المعروفة ، حينما يبدأ بالندب والبكاء .

---

(١) د. أحمد علي محمد : أثر النزعة العقلية في القصيدة العربية ، العصر العباسي : ط أولى ، السيروان للطباعة والنشر ، دمشق بيروت ، ص ١٢٠– ١٢١ ، بتصرف .

والثاني : خاص ، إذ يستشعر القارئ أنّ ندب المعري وبكاءه ، مختلف عن ندب سابقيه وبكائهم ، فهو لا يبكي شخصاً بعينه ، وإنّما يرثي الإنسانية جمعاء ، ويندب مصائر الناس في كلّ زمان ومكان.

وماذا تنتظر من رجل عبقري كالمعريّ ، ضربت الحكمة والفلسفة بجذورهما في شاعريته غير أنّه يؤمن بأنّ اللاجدوى ، واللامنطق يحكمان كلّ شيء ، وأول ما يحكمانه هو المصير الإنساني ذاته ، إذ إنّ الإنسان في حياته الكابية تلك ، أحقر شأناً من أن يردّ عن نفسه غائلة الموت على الرغم من تيقظه له وخوفه غير المحدود منه، وهو الذي يُلقي كلّ لحظة العديدَ من البشر في غياهب الأرض حتى تزاحمت بهم اللحود، الغني والفقير، الكريم والبخيل، العالم والجاهل ، الأبيض والأحمر، الذكر والأنثى، الصغير والكبير، الصالح والطالح، المؤمن وغير المؤمن، الحاكم والمحكوم،،

رُبّ لَحْدٍ قدْ صارَ لحداً مِراراً *** ضاحكٍ من تزاحُمِ الأضداد

والقول في فلسفة المعريّ في شعره ، ونظرته التشاؤمية والعبثية للموت والحياة لا حدود لها ، لكنّني حاولت – قدر المستطاع إبراز هذا الجانب النفسي الذي خلّفه كفّ بصره على أثر إصابته بالجدري ، وموت أبيه في مطلع صباه ، ثمّ فَقْدِ أمه عقب عودته من بغداد مُخيّب الآمال ، فلزومه محبسه في بيته في المَعَرّة ليعتزل الناس من حوله ، وعزوفه عن الزواج ،وتملّك الشكّ من حياته ، وسوء الظنّ بمن حوله ، والزهد والتّقشّف في المأكل والملبس ، ليقضي نصف عمره يفكّر ويقلب في خبايا النفس الإنسانية ، كلّ ذلك سبّب له أزمة نفسية لم تبرحه إلى آخر أيّامه حتّى طغت على فكره وفلسفته عن الحياة والموت ، والتي ظهرت جليةً في تجاربه الشعرية خالصة .

ولا أزعم بعد هذا الجهد أنّني قد استوفيت جوانب هذا الموضوع التراثي الخالد ، الذي ينتظر من الباحثين المعاصرين الانفتاح عليه بالقراءة والدرس، والتنظير والتحليل ، حتّى تتعرّف الأجيال القادمة على تراث الأمة ، وعبقرية أجدادهم في الإبداع والفكر والرأي ، سيّما لو كانت هذه العبقرية تتجسد في الشاعر الحكيم الفيلسوف ، صاحب التجربة الروحية ، الشمولية، في المعاناة والاغتراب النفسي والكوني ،والحياتي ' العبقري أبو العلاء المعري .

والحمد لله في الآخرة والأولى ،،،

* مصادر البحث ومراجعه

١- أثر النزعة العقلية في القصيدة العربية .. العصر العباسي : د. أحمد علي محمد ، ط أولى ، السيروان للطباعة والنشر ، دمشق – بيروت ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .

٢- الإنصاف والتحرّي في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي : لابن العديم : ، عن النسخة المنقولة عن المجمع العلمي العربي بدمشق ، الممهورة بإهداء إلي المجمع من محمد مرعي باشا الملاح من خزانته بحلب ، بتاريخ ٢٧ من ربيع الآخر سنة ١٣٤٠ هـ ، وحفظت في المجمع الدمشقي برقم : ٤١ وعليها عبارة الإهداء من الملاح باشا ، (pdf) .

٣- البداية والنهاية : لابن كثير ، ط أولى ، دار الريان ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٤- تجديد ذكرى أبي العلاء : طه حسين ، ط ٦ ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٣م .

٥- تجليات الإبداع الأدبي ، دراسات في العصر العباسي الثاني : د. محمود علي عبد المعطي ، ط أولى ، دار النشر الدولي ، الرياض ، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م .

٦- ثورة الشعر الحديث : د. عبد الغفار مكاوي ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

٧- الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره : محمد سليم الجندي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٦٢ م .

٨- حكيم المعرة : عمر فروخ ، ط٢ ،مطبعة الكشاف، بيروت ، لبنان ، أغسطس ١٩٤٨ م .
٩- دراسات في النص الشعري : د. عبده بدوي ، ط ٢ دار الرفاعي ، الرياض ، ١٩٨٤م .
١٠- ديوان سقط الزند : أبو العلاء المعري ، شرح وتعليق الدكتور : م.رضا ، المجموعة الكاملة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ م .
١١- الديوان في الأدب والنقد : عباس محمود العقاد ، إبراهيم عبد القادر المازني، ط٣،مطبوعات الشعب ، مصر ،بدون تاريخ.
١٢- زكي مبارك شاعراً : د. العربي حسن درويش ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ م .
١٣- الرّثاء في الشعر العربي ، أو جراحات القلوب : د. محمود حسن أبو ناجي ، ط أولى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٠هـ - ١٩٨١م .
١٤- سقط الزند : لأبي العلاء المعري ، ط دار بيروت للطباعة والنشر ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧ م
١٥- سقط الزند : لأبي العلاء ، شرح التبريزي ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الناشر الدار القومية للنشر ،القاهرة ، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤ م .
١٦- شروح سقط الزند : تحقيق : مصطفى السّقا وآخرون ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م .
١٧- شعرنا القديم والنقد الحديث : د. وهب أحمد رومية ، ط

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، عالم المعرفة ، شوال ١٤١٦هـ - ١٩٩٦مارس م .

١٨- ظاهرة التشاؤم في الشعر العربي من أبي العتاهية إلى أبي العلاء : د. عفيف عبد الرحمن ، ط أولى ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١٩- أبو العلاء المعري : أحمد تيمور باشا ، ط مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، ٢٠١٢ م .

٢٠- أبو العلاء المعري ، حياته وشعره : سمير الصارم ، ط دار كرم ، دمشق ، سورية ، بدون تاريخ .

٢١- أبو العلاء المعري : عائشة عبد الرحمن ، ط القاهرة ، ١٩٦٥ م .

٢٢- علم العروض التطبيقي : د. نايف معروف ، د. عمر الأسعد ، ط أولى ، دار النفائس ، بيروت ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

٢٣- العمدة :لابن رشيق ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، ط أولى ، دار الطلائع ، القاهرة ، ٢٠٠٦ م .

٢٤- فصول في الشعر ونقده : د. شوقي ضيف ، ط٣ ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ .

الفصول والغايات : لأبي العلاء المعري ، تحقيق : محمود حسن زناتي ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

٢٥- في الشعر العباسي ، نحو منهج جديد : د. يوسف خليف دار قباء للطباعة ، الناشر مكتبة غريب ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

٢٦- الفكر والفن في شعر أبي العلاء المعري ، رؤية نقدية عصرية للتراث : د. صالح حسن اليظي ، ط دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ .

٢٧- قضايا العصر في أدب أبي العلاء : د.عبد القادر زيدان ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦م.

٢٨- اللزوميات: لأبي العلاء المعري ، ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦١م .

٣٠ - لسان العرب : لابن منظور المصري ، ط دار المعارف المصرية ، بدون تاريخ .

٣١- لغة أبي العلاء المعري في رسالة الغفران : د. فاطمة الجامعي الحبابي ، ط دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ .

٣٢- مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية : د. عبد الحليم حفني ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ م .

٣٣- مع أبي العلاء في سجنه : طه حسين ، ط دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ .

٣٤- مع المتنبي : طه حسين ، الناشر وزارة الثقافة ، المملكة الأردنية الهاشمية ، ٢٠١٤ م .

٣٥- ملامح وحدة القصيدة في الشعر العربي بين القديم والحديث : د. سامي محمد منير عامر ، ط أولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الإسكندرية ، ١٩٧٩ م .

٣٦- من تاريخ الأدب العربي : طه حسين ، ط٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، فبراير ١٩٨٠ م .

٣٧- موسيقى الشعر : د. إبراهيم أنيس ، ط ٥ ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٨ م .

٣٨- موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور : د. صابر عبد الدايم ، ط أولى ، مكتبة الرشد ، ناشرون ، الرياض ، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

٣٩- نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس : العباس بن نور الدين الحسيني المكّي ، ط تعريف القدماء .

٤٠- الوافي في العروض والقوافي : للخطيب التبريزي ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة ، ط ٤ ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

* المجلات والدوريات :

١- مجلة الهلال المصرية : العدد الرابع – السنة الحادية والثمانون – أول إبريل ١٩٧٣ م .

٢- مجلة الهلال المصرية : عدد أغسطس – ١٩٩٢ م .

*****